

DR. WILLIAM A. COOK

رواية

ويليام ا. كوك

أحداث نيفاريا

ترجمة

سعاد عبد الرؤوف قرمان



منتدی سور الازبکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

أحداث نيفاريا

أحداث نيفاريا

ويليام أ. كوك

ترجمة: سعاد عبد الرؤوف قرمان



2010

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2010/5/1389)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعتبر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978 - 9957 - 00 - 447-7 (ردمك)

- أحدث نيفاريا .
- تأليف: ويليام أ. كوك ، ترجمة: سعاد عبدالرزوف قرمان .
- الطبعة العربية الأولى: الإصدار الأول 2010 .
- الإخراج الداخلي وتصميم الغلاف : دائرة الإفتاح / دار الشروق للنشر والتوزيع .
- جميع الحقوق محفوظة © .



دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس 4610065

عرب 926463 الرمز البريدي 11118 عمان - الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

دار الشروق للنشر والتوزيع

رام اله - الصين نهاية شارع مستنفر رام اله

هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319

Email : shorokpr@palnet.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المطومات
أو نقله أو إستنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

إهداء

إلى جميع الذين تعذبوا ويتعذبون
على أيدي المخادعين والقساة
والمخبولين.

هذا الكتاب قصة خيالية. كل الأسماء، والشخصيات، والحوادث، والأماكن هي من نتاج مخيلة المؤلف. وقد قصد استعمالها بصورة زائفة. إن أي تشابه فيها لحوادث حقيقية، أو أشخاص احياء أو أموات، ما عدا التقديم المجازي هو من محض الصدفة.

إقرار وشكر

أدين بشكري الجزيل لرئيس قسمي الجامعي، بروفيسور دافيد وارنر، لاطلاعه على النسخة، واهتمامه الذكي بالتفاصيل، إضافة إلى بصيرته السردية مما أضاف الكثير في هذا الكتاب إلى رؤيتي المحدودة. ولكن بالإضافة، عليّ أن أقدم شكري لملاحظات قدمت لي عندما قضيت يومين أصغي لنقد بناء بينما كنت أحضر قرعة جانوس مع حفيدتي في جنوب فيرمونت، وأستمع أيضاً للأوز في رحلته إلى الجنوب. كذلك طلبت ومنحت فرصة التوجه إلى كريس كوك، محرر باسيفيك فري برس (Pacific Free Press) في كولومبيا البريطانية، إذ راجع النسخة النهائية باهتمام وعناية، فله فائق الشكر. وأخيراً شكري واحترامي لزوجتي -التي بتفهمها الفريزي لما يعطي الحياة إلى كل الأشياء في مواسمها- منحت الحياة لهذه القصة. وأتقدم بشكر خاص على الجهد الهام الذي بذله الدكتور أوري ديفيس في تقديم هذا الكتاب للأستاذ فتحي البس صاحب دار الشروق الذي وافق على نشره مشكوراً.

المحتويات

11	مقدمة
15	استهلال
25	اليوم الأول، التيقظ
31	اليوم الثاني، التواضع
45	اليوم الثالث، الندم
59	اليوم الرابع، الاعتراف
77	اليوم الخامس، الكفارة
89	اليوم السادس، العفو
113	اليوم السابع، الثواب والعقاب

مقدمة

كريس كوك

شتاء قاس يستقبل الموسم السنوي المقدس، المغفرة والعقاب، في كتاب ويليام أ. كوك الخيالي نيفارياً .

بين الصحو والضياع، معلقاً بين الحياة والعدم، يستلقي قائد البلاد السابق، القوي، في غيبوبة، يتفاعل جسمه بمساعدة أحدث الآلات الطبية .

أضعف من أن يصحو، وأشد لؤماً من أن يموت، يذكر الشخص الراقد تحت المشمع، يبطل جرين هاري لايم الشخص الذي رفض دفته، كأن الطبيعة عملت كل ما في وسعها لرفضه. في هذه الحالة، وضع القائد المتجمد ينكر عليه الحياة. بينما طبيعته البغيضة، وثقل وزن جرائمه، يفوق احتمال جهنم. إنه وحيد الآن. لا يعلم أحد عن لحظات وعيه، أو يهتم لمصيره. مهمل من زملائه السابقين، ومُعتبر كحالة خاسرة من أطبائه المشهورين، فقط ممرضته، شخصية بسيطة من الطبقة الوضيعة المحتقرة، تبقى لترعى أبو الشعب .

تقع قصة كوك في عالم مألوف للأسف، من الظلم، والوحشية، والشقاء البشري. وكما في العالم الحقيقي، يتحمل معظم العذاب شعب يعيش تحت نعال الاحتلال العسكري، الذي يسيطر على حياته اليومية. وشبيهه أيضاً بعالمنا، يحدد الخط الفاصل بين المحتل وضحيته، الدين والعرق، مدعوماً بقوة السلاح والحواجز والأسلاك

الشائكة. خلق المحتلون في نيفاريا الخيالية، لسكان البلاد الأصليين، غيتو مسورة تعتمد فيها كل نواحي حياتهم على رغبات سجانيتهم المتقلبة. ففي البقية المجزأة مما كان يوماً وطنهم، تقدم الأرض مجازاً للوجود غير الطبيعي للسكان على جانبي الحواجز المذكورة والتي تقطع المنطقة.

نيفاريا أيضاً، قصة عوالم شخصية متوازية. القائد المبتلى، محكوم عليه بالرقود في غيبوبة، منسي في مشفى يصارع شياطينه، والمرضة الملك، التي تمثل خدمتها للرجل المسؤول عن الشقاء الذي حل بشعبها، أسلوبها في النضال لتحافظ على إنسانيتها. عالق في هذا الفخ، الرجل الذي خطط ونفذ المحو البطيء لأمة، لا يملك سوى حياته، وقائمة شروره على الحياة ليشغل باله، وبين الخدمة اللطيفة لمرضة ترفض أن تستسلم للكراهية.

تتذبذب الحقيقة والخيال في هذا السرد للأحوال البائسة التي أوجدها إحتلال مجتمع إستيطاني يعذب ويعتمد على المواطنين الذين يقيدهم تحت أقدامه ويسحقهم بدباباته وجرافاته. ماعلينا سوى الإستماع لنشرة الأخبار المسائية لنشهد الحقيقة المؤسفة التي ترويها قصة كوك الخيالية: حرب، وإشاعات حرب، وأسوأ ما في الأمر القسوة اليومية التي تسحق الروح والتي يفرضها إحتلال لا نهاية متوقعة له.

نيفاريا سرد ملائم للخديعة المرة لوعده هذا الكوكب في بداية القرن. وعد خيب الأمل بحرب واحتلالات: كما حدث مع الذين علقوا في المناطق المصابة حيث تتجلى عادةً أسوأ ما في الطبيعة البشرية. إنه يقص بالتفصيل عذاب الذل لإحتلال جيلي، يقتل يومياً دون أن

يعاقب بينما هو يعاقب ويلحق بقصاص جماعي شعباً كاملاً، ويسعى لمحوه محواً نهائياً لا مفر منه. يقاوم ضحايا المحو المقصود بالبنادق والقنابل والصواريخ والحجارة، ولكن المعركة الحقيقية هي في الحفاظ على ملائكة الطبيعة الأفضل في نفسية كل منهم. وإذا ترفض الوقوع في الكراهية اللامنطقية التي تؤدي إلى حلقة لا نهائية من الكراهية، تكرر الممرضة الشابة إخلاصها لطبيعتها السامية كخارطة طريق لها للخروج من الدوامة. إنها مثالية في مقاومتها، وهي الأمل الوحيد لمستقبلنا ومستقبل نيفاريا.

مع اقتراب فصل الشتاء ونهاية رئاسة ج.و. بوش المشؤومة، تتبارى حروب جديدة وإقتتالات لإحتلال عناوين الصحف البارزة، فتتبارى مع الفضائح السابقة التي تعودنا عليها. هذه الإعتداءات اليومية على الإنسانية واستمرارها سنة بعد أخرى، والإبن بعد الأب لا يمكن نسيانها، كما لا يمكن أن نخففها لبساطة مواقف المعارضة المطلقة.

هذه ليست مأساة شكسبيرية، مع ممثلين إعتيادين على المسرح: الشرير والضحية، مرتبطين بمسرحية عاطفية تحدد شخصية كل منهما وتحطمهما معاً. كتاب وليم كوك خلق إنعكاساً لحقيقة تلسع الإهتمامات السطحية للسياسيين وهراء الأخبار. إنه أكثر من نداء من القلب للمسحوقين في العراق وأفغانستان وفلسطين، والكثيرين من المعذبين بشكل دائم في أماكن أخرى. إنه نداء ملح للدفاع عن الإنسانية، وصلاة. إنه كما يتمثل في ملاك الممرضة، ليس متأخراً لإنقاذ روح الجميع، والإتجاه أخيراً نحو التنفيذ المراوغ لوعد الإنسانية.

أما بالنسبة للحكام الظالمين وأعوانهم، يقترح كوك: أن ندع ظلالهم تقع على أراضي البور التي خلقوها بعجرفتهم، وأن نتعلم ونعلم ثانية.

قصة أخلاقية

إستهلال

لم يتوقع احد البرد القارس الذي اجتاح البلاد في موسم عيد الغفران والعقاب في نهاية السنة. جاء فجأة، حتى الآن لا تزال الثلوج الخفيفة تتساقط من السماء الداكنة، وتتناثر كغشاء صامت يفسى المستشفى.

في الداخل، كان المريض يرقد على سريره بدون حراك: كان وجهه شاحباً كالرخام، وقد تكورت ملاءة السرير كمشمع مشدود تحت جسده الهامد، وبدا كئاووس القرون الوسطى الذي أعد للبابا الكسندر الرابع عام 1261. غير أن هذا ليس القرن الثالث عشر. إنه الآن: مع أن الآن هذه لا تعني شيئاً للمريض وهو يرقد في غيبوبته التي سببها سرطانٌ زحف في جسمه خلال سنوات حتى استقر في دماغه وأطبق على جسمه كله. ومع هذا، فهو يتنفس دون شعور وإدراك بواسطة جهاز التنفس الصامت. إنه يرقد منذ ثلاثة عشر شهراً بلا حراك كجثة أعدت للنظرة الأخيرة في بيت الموتى، لا شيء يتحرك. صمت كثيب يغمر الغرفة كغطاء نعش. عتمة المساء تلقي بظلالها القاتمة على الأشجار العارية، ولا صوت سوى أنين الرياح ينعي سقوط البطل الذي لا يزال يعيش متجاوزاً الموت نفسه.

يميز عيد الغفران والعقاب نهاية الحياة كما وردت في كتاب الأحكام، النص القديم لدين نيفاريا، هذه النهاية التي يحتفلون بها في نهاية السنة القمرية، والتي تدعو المؤمنين لأن يتذكروا ويفكروا بخطاياهم التي اقترفوها على جيرانهم واصدقائهم وأقربائهم.

بدأت مراسيم الأيام المقدسة منذ تأسيس ولاية نيفاريا، ولو أن قلائل عرفوا أصلها ولم يتساءل أحد عنها. توجد نيفاريا من قرون في عقول أولئك الهائمين في تلال ووديان الممالك الوسطى، ذاكرين حضارات قديمة لمت لفترة تحت الشمس الحارقة، ثم تلاشت عن الأنظار وقد غمرتها رمال الطمي والنسيان. ولكن من وقت لآخر كانت هذه الرياح التي أطاحت بسطوة وحكمة حضارة ما في عصور قديمة، كانت هذه الرياح تكشف عن بقاياها وقد اندثرت عميقاً في الرمال، وتميط اللثام عن جوارها المغلقة على أصوات أنبيائها الذين تتبأوا بنهايتها التي لا مفر منها. ولكن قلما تؤدي التحذيرات إلى التعقل، بل غالباً ما تحرك بذرة الأمل في محاولة لإسترجاع المجد. ورغبة يائسة لبسط مبادئ جديدة على معتقدات قديمة قبل أن تدفنها الرياح بدورها في تلال النسيان، منتظرة البعث مرة أخرى على يدي طامح جديد للقوة والعظمة.



تبدأ التحضيرات للعيد في الخريف الباكر. فتنتشر التوجيهات من قاعة العبادة حيث تجمع الكنيسة في مدينة دسبيريا المقدسة، إلى جميع الكنائس تحمل مقاطع جديدة من كتاب الأحكام ليرتلها الحجاج خلال الموسم، ومعها اللحن لكل يوم من أيام الأسبوع، وقد حملت موافقة الرئيس الأعلى الذي يحكم الكنيسة العليا في هذه السنة، وكلفتة تعاطف مع الوضع الصحي المتدهور لقائد البلاد المبجل، وهو يرقد في غيبوبة في مستشفى الحكومة بدل أن يترأس الحكومة، يتركز موضوع الأناشيد حول إنجازاته التي قادت نيفاريا خلال الخمسين سنة الأخيرة إلى مركز مرموق في العالم، بفضل

صفاته وفضائله. لقد جسّد فضائل نيفاريا وقيمها، وأصبح رمزاً لأخلاقها.

من الطبيعي أنه لا يعرف شيئاً عن هذه التطورات، إذ أصيب بالفيبوبة قبل عدة أشهر. ولكنه احتفل بالموسم طيلة حياته ويعرف أن على كل فرد أن يراجع بجديّة كل خطاياہ والأذى الذي ألحقه بالآخرين. فعلاً يجهل الجميع سخريه وضعه وهو يرقد في غيبوبته، أو يصحو منها أحياناً فيسمع ويتذكر ويتأمل بكل ما حدث في حياته، ولكنه لا يستطيع التواصل مع أحد.

آه، لقد وصلت ملاكي. حقاً ملاك. فهذه المهمة التي تقوم بها، فترفع جثة سمينة ليتم تغيير الشراشف تحتها. أنا لا أشعر بها ولكنه نظام المستشفى. يعلم الله أنني تجولت في هذه الأماكن طويلاً. حمّموا المريض. غيروا الشراشف، إفحصوا الأجهزة! إنه النظام. ولكني أسمعها، أسمع الباب يُفتح، خطواتها، صوت الفوطة وهي تُغمس في الماء؛ لماذا لا أشعر بالماء أو أي شيء لعين؟ لا شيء يتحرك. أنا دفين حي، أسمع أصواتاً وسخفاء..

ذاك الصوت... شخص آخر هنا. من؟ أي أبه يأتي الآن؟ أنا اسمع... وهم لا يعرفون. يفتح الجهل أفواههم، ويصبون سخافاتهم في الهواء. يجب أن نقطع، الضغوطات كبيرة، ولا خيار لدينا. قد يساعد، إن لم يساعد لن يتغير شيء. بلهاء! حمقى! ما أغرب أن أسمع أفكاراً يهوسونها عني، أن يحفر شخص ما في جمجمتي بلا موافقتي أو يهزأوا بي ويسبونني وأنا لا أقدر على الحركة. أنا أسمع ولكني لا أحياء، لا يفيض حولي سوى الصوت:

الصمت، الهواء الدافئ من فتحة المدفأة، صوت سيارة تتحرك على الحصى، ضجيج محرك طائرة، رياح خارج النافذة، أصوات، أصوات كثيرة، منها المرتفع من آخر القاعة وأصوات ناعمة كصوت هوميليا، أصوات خشنة تطلب منها القيام بأعمال مختلفة، أصوات أود لو أخفقها، صوت، صوت، فقط صوت، أية حقيقة هذه؟ لا تجاوب! لا يمكنني أن أتجاوب. أنا وحيد.. وحيد. آه لو تمكنت من الرؤية! أو أن أحرك أصبغاً، ألفظ صوتاً، أي شيء يشعرهم أنني هنا، حي، واع... للألس الاخرين.

قلائل أساءوا الكلام عن المريض أثناء إجراء العمليات المتلاحقة في محاولة يائسة لإيقاظه. ولكن بينما تمكن الجراحون من قطع الالتهابات الملوثة ومنع انتشار الخلايا السرطانية، كانت الجلطات والنوبات القلبية تتركه مشلولاً، عديم الحركة. لم يتمكن الأطباء أو المرضون والمساعدون الذين اعتنوا به من معرفة ما إذا كان مدركاً لحالته أو حتى قادراً على سماع الأصوات المحيطة به. عرفوا أنه لا يقدر أن يرى أو يلمس أو يشم. لم تظهر عليه أية دلالة تشير إلى حيويته فقط صوت نبضات قلبه المتلاحقة على الأجهزة. ولكن بقي السمع والوعي مجهولين لهم. خيمَ الغموض على السرير و جسد المريض الملقى عليه، وتسلل إلى وعي كل من يدخل الغرفة فارضاً غطاءً من الصمت كيلا يستيقظ من قبره الرخامي ويلعن كل من تجرأ على الإساءة إليه. لقد افترض الجميع أنه لا يملك إحساساً أو إدراكاً مميزاً، ومع مرور الوقت تصرفوا جميعاً على هذا الأساس.

ولكن تشوق المريض وعذابه النفسي لم يصل آذانهم؛ فهو مجرد شيء في الغرفة، بلا حياة، كالسريراً والكرسي. شيء يحركونه وقت اللزوم لينظفوا البلاط أو يعيدوا تنظيم جهازه.

سمع المريض قدوم فتاة التنظيف، صديقة هوميليا وابنة حارتها داخل السور. كانت كاريتا صغيرة الجسم لا يزيد طولها عن خمسة أقدام، يحيط وجهها وشاح أسود يصل إلى كتفيها ويتضارب مع ثوبها الرمادي الطويل المنسدل على قدميها. عند دخولها أومات برأسها تحيّي هوميليا وتشير إلى النافذة البعيدة عن السيرير.

ما الأمر كاريتا، ما الخطب؟ كان صوت هوميليا مختنقاً كصوت الأطفال الذين ولدوا تحت الإحتلال عند شعورهم بالمشاكل. إذ يتوقعون إذلالاً أو ما هو أسوأ....

لا مشاكل، فقط أردت أن أعرف إن كنت رأيت الحجاج في شارع ييوكريزس وهم في طريقهم إلى قاعة العبادة؟ كان هناك المئات منهم. يهزون رؤوسهم ويرتلون بصوت منخفض، شيء غريب، ما الأمر؟ كل شيء مظلم ولكن لا أعرف لماذا؟ تشعر كاريتا بالقلق في صوت هوميليا وتقترب لتهدئ روعها. كان هناك غموض يفصل هؤلاء الحجاج عن أولئك الذين عرفتهم في طفولتها، يوجد طعم كره يرافق غطرستهم ومظهر التواضع الذي يعرضونه في الشارع. إنه موسمهم المقدس. عليهم أن يذهبوا إلى قاعة العبادة لطلب المغفرة، هذا كل ما اعرفه. أنا لم أراهم ولم أقرب من شارع ييوكريزس فقد تأخرت بسبب البوابة.

يا للبراءة والبساطة، ما أجهلهم. لقد أمسك بهم فلا يستطيعون التقدم، كلهم كذلك. لا حافز لديهم ولا رغبات. فقط يتسكعون ويتكلمون. أية حياة هذه؟ لا فرق بين سكان الأكواخ والبيوت العريقة المهملة. لا مال... لا ذوق... فقط وضع مستور ولكنهم راضون، بل سعداء، قبل الإحتلال على كل حال: إنهم يعيشون الآن في سجن،

يحرصهم الحجاج الذين رأتهم كارتنا . أوه. طبعاً يذهبون إلى القاعة:
عليهم أن يرحفوا إليها فلدبهم الكثر مما يطلبون عليه الففران .

إنها لا تعرف، لا تعرف. أناس من جمبع الأنحاء يأتون بهم ليزيدوا
عدد السكان . طفيليون. يعيشون على أموال الغير متمصبون قذرون
يسيطرون على المسؤولين بحشو جيوبهم . ولكن لماذا ألغنهم؟ ألم أفعل
مثلهم؟ مهنتي بأكملها قامت على هؤلاء الحيوانات . أعرفهم وأفهم ما
لن تعرفه كارتنا وهوميليا أبداً، أنا احدهم بل أسوأهم .

ماذا قالت؟ شيء لفتني . آه، كل شيء مظلم نعم، كل شيء مظلم .
ظلام الإيمان بإقصاء الجمبع ما عدا الذات . أن تكون من النخبة
المختارة... ذاك هو الظلام . أن تعيش وحيداً في الشك الذي يلهبه
إيمان لا مبرر له ولا يمكن تفسيره . أن تعرف كل شائبة تهش
أحشائك الملتوية المعقدة بسرطان الشك الذي يقتل اليقين . السم
البطيء الصامت الذي يدل على ضعف يمزق الثقة... كل هذا يجب
أن يظل خفياً لا يطلع عليه الآخرون . ذاك سجن أسوأ من الجدران .
تلك حياتي . وأنا أعرف أين أبداً، ذلك اليوم، أعرف اليوم...

مع مرور الشهور تناقص عدد أطباء المستشفى الذين رعوا المريض .
نقلوه من جناح الشخصيات الهامة بمدخله الخاص وصالة الزوار
بمقاعدها الفخمة، ولوحات رؤساء الدولة السابقين إلى الطابق الثالث
حيث يتواجد الآن مع آخرين في قسم المعالجة بالمسكنات بانتظار
الموت .

كانت وظيفة هوميليا في الرعاية اليومية، أن تفحص أجهزة المريض
وتحافظ على استمرار السوائل التي يعيش عليها، تغير ملامة السرير

يوميًا وتحمم المريض. كان عملها يتطلب منها لبس مريول المرضات الأخضر الواسع الذي يمنحها حرية الحركة. أما حجاب رأسها فتخلعه في عملها و تستبدله بغطاء رأس المرضات الصغير، تضعه فوق شعرها البني الملتف. مضى عليها في هذه الوظيفة ثمانية أشهر وستستمر طالما هو في غيبوبته. ولكن العناية بالمريض أصبحت بالنسبة لها مسؤولية مقدسة، خصوصاً وأن الآخرين هجروه.

كان مرور الزمن يعني قليلاً للمريض. وبالتدريج أصبح إهمال المسؤولين في الحكومة وزملائه في الحرب ورؤساء الأديان وحتى عائلته لا يهيمه. مرت أسابيع قبل أن يلاحظ تناقص عدد زواره، أسابيع كان خلالها يظن انه لا يزال في الحكم وأن عودته للسلطة وشيكة..

وفي أحد الأيام سمع ملاحظة من الطبيب إلى مساعده، فأدرك أن العناية به قد إنتقلت من الأطباء الكبار في المستشفى إلى ممرض إليوسي، فانفجر بغضب داخلي ضد هوميليا و مساعدتها كاريتا. لكن أحداً لم يتجاوب مع إحباطاته: لقد انتقلت رعايته إلى أيدي من يحتقرهم.. ومنذ ذلك اليوم أصبح يقابل إذلاله بإتهامات لثيمه لهوميليا، يتبعها بأسف عميق إذ أدرك أنها وحدها تهتم به.

تدربت هوميليا في هذا المستشفى منذ ثلاث سنوات. إذ انتقلت للعيش مع جدتها في بيتها في البلده القديمة حيث عاشت منذ ستين عاماً. كان والدا هوميلي ا يعيشان في إليوسيا، وهي منطقه تتاخم نيفاريا ويحتلها الجيش النيفاري.

كان بيت جدتها يقع داخل أسوار البلده القديمة، ويشرف سطحه على السور الشرقي. من الشمال يرتفع أقدم مسجد في البلده القديمة

وراء الخطوط الكهربائية والأسلاك الشائكة التي تحيط به، وتقاط التفتيش التي تحرس مدخله. تسير هوميليا يومياً نفس الطريق التي تقطعها هذا المساء. إنها تفكر بمريضها وتتساءل عن أية حياة له داخل جسده الهامد.

ماذا لو كان يفكر، ماذا لو أنه يسمع ويفهم ما يدور حوله، كيف تراه يتجاوب لو أنه تمكن من ذلك؟

لكن الواقع يقطع حبل أفكارها وقد تجاوزت نقطة التفتيش. تسير ببطء بين الجموع التي تتحرك بإتجاهين متعاكسين في الزقاق الضيق وقد إرتفعت على جانبيه جدران من الصوان بأبوابها التي صدا حديدها، ونوافذها ذات الأطر الخضراء والمشبكات الفولاذية. ملصقات قديمة ممزقة لا تزال تلتصق بالجدران، وعلى الأرض تتناثر علب الخضار الفارغة وأكياس النفايات السوداء؛ أوراق ممزقة وقطع من الخشب ملقاة على الدرج الذي عليها صعوده وهي تتجنب الحجارة الملساء التي أضيفت للدرج لتمكين العربات من إرتقائه، وكاميرا الحراسة اللابدة فوق القوس المعتم. فإذا تجاوزت الظلال، واجهتها وهجة من الضوء البرتقالي تفر الساحة الصغيرة خارج المسجد التي تملؤها ألواح محطمة من الفولاذ الأخضر ودلاء ضخمة من الإسمنت المحشو بأكياس الرمل البنية، وأبنية صغيرة من المعدن والشوادر البالية التي تحيط بالحرس المتمركز في المنطقة. فوق رأسها تتشابك خطوط الهاتف والأسلاك الكهربائية الممتدة من الجدران العالية إلى أعمدة أقيمت دون ترتيب مقابل المسجد كخريشات بالقلم الأسود.

ما أبشع هذا تتمتم، أشرطة وأسلاك تحيط بالمسجد، ثياب الجيش البنية البشعة، بنادق، إنهم يهزأون بديننا - ماذا يهمهم؟

بعد بضع خطوات تدخل من باب ضيق مُقوَّس إلى ردهة رمادية إلى يسارها بابان لشقتين صغيرتين تقطنهما عائلتان كبيرتان. وإلى اليمين درجات حجرية ضيقة تتعرج صاعدة إلى فسحة فيها باب شقة الجدة نانيا. يقع باب الشقة إلى يسار الفسحة. مدخل صغير ذو طاقة زجاجية مغطاة بستارة. وإلى اليمين فجوة صغيرة وضع فيها مقعد خشبي وكرسیان، ملجأ من شمس الصيف ولكنه الآن متروك في الفصل البارد.

تدخل هوميليا وتتزع معطفها وخمارها وتتادي جدتها في طريقها إلى المطبخ. إنه مظلم لا ينيهره سوى ضوء المساء المتسلل من النافذة الصغيرة. السقف منخفض والغرف صغيرة. لا أحد في الشقة. تسرع هوميليا إلى الخارج وتتادي : نانيا، نانيا ولكن صوتها يضيع في الهواء. تتجه للدرج المؤدي إلى السطح. حبال غسيل ومواسير وأنتينات تلفزيون وقباب مستديرة هي ما يبدو من السقف المقنطر الذي يعلو درج البيت.

ماذا تعملين على السطح يا نانيا؟ لقد دخل أوان منع التجول ومن الخطر عليك الوقوف هنا. الجميع في الداخل منذ ساعة. والجنود امامنا عبر الشارع

لماذا أتيت مبكرة؟

لأنه لا يوجد ما أعمله له. لم يتغير شيء. إنه راقد بلا حراك. حتى تنفسه لا أراه بدون الجهاز. كأنه ميت.

كيف لا يمكنك رؤية تنفسه؟ إنه رجل ضخم، كرش كبير ووجه سمين. لقد رأيته؟

كوني لطيفة يا نانيا، إنه يموت ويجب أن نكون لطفاء .

تخاطب هوميليا جدتها برقة فهي تدرك أن جدتها شهدت في حياتها التحول الذي طرأ على إليوسيا وشعبها نانيا تعرف من تجربتها أنه لا فائدة من الأحلام.

سامحيني يا ابنتي. أعرف أن علينا أن نغفر: ولكن معرفتي أنك مسؤولة عن العناية بهذا الرجل. هذا الوحش الذي سبب شلل والدك وكل آلام قرينتك، لا يسهل علي الصبح...

كان في صوتها نبرة حزن أثارها الذكريات الأليمة حين دُمرت آمال العائلة في أقل من خمس دقائق. إنها مجبرة على إحتواء غضبها والكره الذي يلتهب في داخلها، كنمو سرطاني ينكمش وينتفخ كلما رأت (ن.و.ف) قوات الإحتلال النيفاري يوماً بعد يوم.

تقف الإثنتان على سطح الشقة الصغيرة. تناولت نانيا بعض الملاءات عن حبل الغسيل وألقتها في سلة عند قدميها تمر هوميليا وراء الجدة العجوز بجسمها الضئيل المحني وجلبابها البني وتحمل سلة الغسيل. تقف كلتاها للحظة وتنظران عبر الأسطح إلى التلال البعيدة التي يبدو خط أفقها على السماء. ومن بعيد تبدو الشمس وهي تحبو بهدوء وراء الأسطح البعيدة. كل شيء هادئ الآن

لا يوجد مارة في الشوارع والأزقة وما من حركة حول المسجد. يبدو الوضع وكأنه كما كان قبل الإحتلال. قبل صفارات الإنذار وقبل الجنود ببنادقهم وخوذهم. قبل أن تتغير الحياة في إليوسيا.

اليوم الأول: التيقظ

تفلق الباب وراهما فتلطم رياح الصباح الباردة وجهها كاشفة وشاحها فتمسك به وهي تهبط الدرج. فإذا ما وصلت الزقاق، تتوقف الرياح. إذ تعترضها الأبنية والسور. ولكن صفيحها لا ينقطع. بل يتخلل الأزقة المتعرجة في البلدة القديمة. تمر هوميليا عبر الأبواب القديمة للدكاكين المفلقة في شارع ديسبوندا، بسبب منع التجول لليوم الخامس.

تعرف هوميليا أن عليها أن تحترس: فالجنود يراقبون منع التجول. عليها أن تسير بثقة وتصميم وإلا ظنوا أنها تتوي القيام بأمر ما، فهم يرونها بوضوح من أماكنهم.

عندما تدخل ساحة المسجد ترى بنادقهم المغطاة بالشباك العسكرية المقامة على أسطح بيوت كانت ملكاً للإليوسيين ولكنها الآن أصبحت لحجاج نيفاريا. تنظر إلى السماء فتلاحظ أن غيوم الخريف تتسارع فوق رأسها.

تدخل زقاقاً في نهاية الساحة فترى الشريط المشبك الذي يغطي الممر، وقد ملأته القاذورات التي يرميها الحجاج على المارة. فأكهة ولحوم متعفنة تشر روائحها الكريهة في كل صوب، وقد احتجزتها جدران البيوت العالية المحيطة بالممر. نور خريفي ضئيل يتسرب من ثقوب المشبك فوق رأسها. في نهاية الشارع ترى نقطة الحراسة في مدخل البلدة القديمة. طابور من الناس. أقل من المعتاد بسبب منع التجول. ينتظرون تحت سقف الممر الضيق المغطى بألواح التلك. تأخذ مكانها في الصف. لا شيء يتغير تفكر.

يوماً بعد يوم نقف في الصف. نغادر بيوتنا باكراً. فقط لنقف في الصف، ونضيع وقتاً كثيراً. لماذا؟ لنمر عبر سورنا إذا حصلنا على

تصريح. يا للسخرية، فإنا أذهب للعناية بابنهم الحبيب شهراً بعد شهر. عندما تقطع منطقة إليوسيا تدخل هوميليا عالماً جديداً. أرصفة نظيفة لدكاكين دائمة التجديد. وقد عرضت واجهاتها ثياباً غالية أنيقة أحذية جلد خميرية اللون، وجزم سوداء مبطنة بالفراء الأبيض، وقد صممها مشاهير عالم الأزياء. بذلات من التويد الأخضر الرمادي والصوف الكحلي المقلّم، قمصان مخرّمة وتنانير حريرية مثناة. نظارات بألوان مختلفة توقفاً لأزياء الربيع، وقد زخرف بعضها بالفضة والحلي. علب مبطنة بالمخمل الخمري تضم أدوات لمائدة الطعام، وقطع فنية قديمة لجذب السواح الذين يزورون هذه المدينة المقدسة خلال العام، ولكن خاصة في هذه الفترة حيث تلقي أيام عيد الغفران بظلالها على كل شيء في نهاية السنة القمرية.

تخدم الأيام المقدسة كغشاء لنهاية العام، يدعو جمهور المؤمنين ليتذكروا خطاياهم، خاصة تلك التي تؤذي الآخرين، للتكفير عنها علناً. فيحجوا مع رفاقهم إلى قاعلت التجمع في كل أنحاء المدينة. أو ليتجهوا إلى قراهم ويسيروا مع أهلهم إلى القاعة هناك. ودائماً يقف أمامهم رجال القداسة الذين يحذرون التائبين من العقاب الذي يقع على الذين لا يغفرون. هوميليا لا تعرف الكثير عن هذه العادات القديمة: فقد علقت بين عالمين، واحد تعيشه كل يوم وهو منقسم إلى قسمين: أحدهما الممرات التي تركتها الآن، والآخر الشارع الذي تسير فيه. أما العالم الآخر فهو في روحها حيث تعاليم شيوخها تتعارك مع الواقع الذي يضغط عليها.

تزين أيقونات الأيام المقدسة الرايات المدلاة من أعمدة النور في الشوارع، والأعلام المتطايرة في الهواء بين العمارات والبضائع المعروضة في واجهات الدكاكين. في كل مكان الدائرة الفضية والسهمان برأسيهما المتواجهين، الرموز الظاهرة للغفران والعقاب،

أربعة شموع ملتصقة بدائرة تمثل الفصول الأربعة لحياة أولئك الذن عليهم أن يتأملوا بذنوبهم، ودائرة ملتصقة بالنيران لتذكر الجميع بالعقاب الذي سيتبع. هذه الأيام تمتد من تشرين الثاني إلى أواسط كانون الأول. أيام للتذكر والتأمل والعضو والخوف. تصدح الموسيقى من مكبرات الصوت فوق الجموع المتدفقة في الشوارع. تدب بوقار وتأمل يناسبان الأيام المقدسة. بالرغم من أناقة شارع بيوكريزيس، بأبنيته المرتفعة وزجاجها الأزرق، يسود جو من الإستبطان في الهواء، تقبل صامت لضعف الإنسان الذي يواجه ويحكم عليه.

لم يلزم هوميليا وقت طويل لقطع الشارع والوصول إلى المستشفى بمدخله المهيّب يكتنفه من الجانبين عمودان رخاميان يتوجهما قوس من الحديد المزخرف، يعلوه رمز الدولة. تدخل البوابة وتتجه الى المدخل الجانبي، حيث تظهر تصريحا وهويتها على الباب. تبهرها عظمة البناية كالعماد. وقد نظف حجرها الجرانيتي حديثاً فبدا يلمع بنور الشمس.

ما أروع هذه البناية، بيضاء وناعمة كالثلج المتساقط حولها. ولكنني أشعر بالذنب لإعجابي بها. كم تختلف عن داخل السور حيث تغطي الجدران، حتى الأبواب والشبابيك، راقعة من السخام اللزج... والزبالة... والروائح.

تصاحب هذه الأفكار هوميليا إذ تتجه إلى المدخل الجانبي. إنها تعرف هذا المكان وتعرف الغاية منه. إنه يؤمن العناية الراقية لموظفي الحكومة، والطبقة الغنية، والأجانب المحترمين. يستطيع خريجوه من المرضين الحصول على عمل في أي منطقة من البلاد، ولكنهم يقون هنا، خصوصاً الإليوسيون. إذ لا يوجد مثيل له في الأراضي المحتلة. كذلك هناك حاجة لمن يتكلمون الإليوسية أن يعملوا في المستشفى.

وهذا سبب إستخدام هوميليا، فكثيرون من طاقم العمل لا يحسنون لغة نيفاريا فتستطيع أن تترجم.

في كل صباح ينتابني نفس الشعور عندما افتح هذا الباب. أشعر بحضوره وكأنه يعرف أنني هنا، مع أن لا شيء يتغير. لاشيء يتحرك. فقط ضوء الجهاز الأحمر، إنه يتنفس. كيف يمكنه أن يعيش ولا يعرف شيئاً ما. يعرف أنني في الغرفة معه. أحس انه يشعر بوجودي. ما أغرب أن تظن أنه يستطيع أن يسمعني ولا يقول شيئاً، أو يحاول أن يلمسني. أشعر أنني أعنتي بشبح يفهم ولكنه معزول عن عالمه، بل اسوأ، إنه مفلق داخل هذا الجسد الذي أهمله الجميع. حجاب كثيف من عدم الإهتمام يفمر هذه الغرفة، لقد هجره ناسه، فلا زوار ولا عائلة، فقط أنا واحدة من الشعب المحتقر.

ليس معروفاً لهو ميليا أن المريض يشعر بوجودها. ربما لأن الباب يفلق بلطف. ينتظر كعادته منذ أشهر في ظلام دامس متوقفاً حضورها. لقد أصبحت همزة الوصل التي تربطه بالواقع. يريد أن يسمع صوتها، الصوت الحاني المرتعش الذي يحييه معلنًا كرسول ملكي مرور الزمن. كم يختلف حضورها الآن عما كان في الشهر الأول أو الثاني. كم كان يكره وجودها، لهجتها الحانية وصوتها الناعم يتحدث إليه، وإتكاله على فتاة إليوسية. ولكن الزمن يغير شعور المريض نحو هذه البنت التي لا يعرفها.

تدخل أشعة شمس الصباح من النافذة عند مؤخرة السرير ملقبة ضوءاً خافتاً على الشراشف المشدودة وعلى وجه المريض. تبدو الزوايا الحادة لإنعكاس الشمس، كمجسم قوطي منحوت، مبرزة جمود جسده. في آخر السرير ترتفع قدماه الجامدتان لأعلى، مرخية الملاء بلطف على جسده حتى ذقنه. يرتفع وجهه الرخامي قليلاً فوق الوسادة، ويلمع في الضوء الخافت، جاعلاً شذقيه مرتخيين بنعومة

واستدارة وجفنيه بارزين ضخمين. تقف هوميليا بصمت عند الباب وتنظر إلى هذا الشكل الجامد قبل أن تنزع معطفها ووشاحها، وتبدأ روتينها اليومي بحمام المريض وتغيير الملاءات. تلاحظ إرتفاع منطقة البطن وضمور الذقن تحت أنفه المعقوف ورأسه الأصلع. الشكل المنحوت لا يخفي الشخص السمين والقصير المنتفخ، الذي سيطر على شؤون الشعب منذ بل قبل ولادتها. تقترب منه حيث يقوى الضوء، فيكشف الخطوط المحرزة حول العينين والضم، والشقوق بجانب الأنف، والبقع الداكنة على خديه وجبينه.

ياإلهي... تقول.

تشعر هوميليا بإشمئزاز لهذا الرجل المتمد بلا حراك، معتمداً على رعايتها وغافلاً عن وجودها: تحارب هذه المشاعر. إذ أن إيمانها لا يسمح بالكراهية. حتى تلك التي تنمو كجنين في أحشائها تم تلقيحها في طفولتها، عندما شاهدت الجنود يضربون أباهما على رأسه ويجرونه من المطبخ ويهشمون ركبتيه وهم يلعنونه ويضربونه بلا شفقة. منذ ذلك اليوم أصبح أبوها رجلاً منكسراً، مقعداً ملازماً لكرسیه المتحرك، عاجزاً عن العناية بعائلته، صورة صامته للرجل المتكبر، الواثق بنفسه، الذي عرفته يوماً. هذا المنظر الذي أزاحته إلى مؤخرة رأسها، يعود إلى وعيها كلما مرت بالبوابة وقدمت تصريحها وهويتها للجنود.

ولكن المريض يسمع هتافها: النبرة الخائفة المنبعثة منها دون توقع. إنه يعرف الشعور الكامن وراء اللفظ، الخوف الممتزج بالكره. مع أنه لا يعرف شيئاً عن ماضي هوميليا وما سبب هذا التعبير. هاتان الكلمتان المعبرتان، تعيدان إليه ذكريات طمرها منذ زمن بعيد، ذكريات تحجرت في وعيه ولا يمكن نسيانها: لكنها تحت كراهيته للإليوسيين بنقمة لا نهاية لها لكل من يقاومه...

منذ زمن بعيد، قبل إستلامه السلطه في نيفاريا، كان يقف عند نقطة تفتيش منتظراً ابنه وهو يعود بالحافلة المحلية من المدرسة الى البيت. رأى الحافلة تنفجر في جحيم من اللهب والشظايا المتناثرة. خلال لحظات كان قد أزاح الحديد الملتوي وحطام الزجاج ويصل إلى الولد وينتزعه من الحطام ويضمه بين ذراعيه. يا إلهي، يا إلهي أصرخ في السماء بصوت مختق بالكراهية للإليوسي الذي بلحظة أزال دم ديماس مزيلاً إسمه من الوجود. حينئذ أقسم أنه سينفي هؤلاء البرابرة من حياته، ويسعى بكل طريقة ممكنة لطردهم من نيفاريا. ذلك القسم كان وراء كل أعماله اللاحقة أثناء تدرجه في جيش نيفاريا، مظهراً قوة وشراسة مدمرة ضد أعدائه.

ذاك الغضب والكره دفع بأخ هوميليا للانضمام إلى المقاومة في إليوسيا. إنها تذكر رسالته الأخيرة قبل ستة أيام إذ يخبرها أنه سيعود إلى جوياء في يوم الغفران. إنه يوم عطلتها وتأمل أن تذهب فيه إلى البيت، ولكن السفر أصبح شاقاً بسبب نقاط التفتيش وإنعدام الطرق الصالحة في وجه الأليوسيين. سيتوجب عليها أن تترك الحافلة التي تقطع التلال الخلفية فتقصر الطريق، ولكنها لا تخلو من الخطر إذا ما إعترضها الجنود. ولكنها تريد أن ترى إسماعيل فقد مضت خمس سنوات منذ أن رآته، ولديها يوم واحد. حين ترك البيت حزمت له أمه بعض الخبز والماء على حمارهم الصغير، ورافقته إلى الجبال في أشد طرق الجنوب صعوبة. مر أسبوعان قبل أن تعود أمها. ولكن لو أزادت هوميليا أن تراه فسيكون ذلك في يوم الغفران، بعد أربعة أيام، لأن عليها أن تعود للمريض في اليوم الأخير من الموسم المقدس، يوم الجزاء.

اليوم الثاني: التواضع

أستيقظ ثانية. كيف أستيقظ إن كنت لا أقدر أن أرى أو المس أو أكلم أحداً؟ ما هي اليقظة؟ عالمي كله منطو على نفسه: أنا كل عالمي. لا وجود لشيء سوى ذكرياتي وما أسمعه أحياناً. كيف تصبح هذه الأشياء حقيقة طالما لا شيء يكون بدون إرادتي. وحتى حينها لا معنى لها. إذ لا أحد يعرف ما أفكر به. أطوف في لاشيء سوى السواد... هذا الفراغ المطلق: اليوم الذي قبل الخليفة... قبل وجود أي شيء ولا شيء يتحرك على وجه البسيطة. أنا اللاشيء الضائع في الأعماق... أي تضارب... غاييتي الوحيدة إشباع رغباتي طالما أنا من أنا. عندما أنسى أتوقف... كل شيء يتوقف.

ليل لا نهائي. بدون شكل، كثيف... وقت بلا شمس، حتى بدون نجوم، وبلا ظلال، وبلا غيوم... الفموض المحسوس الذي حيًا إبليس. أنا الآن... أستلقي وراء الزمن غير معروف ولا عارف. لماذا؟ لماذا أستلقي هنا أتذبذب داخل وخارج الوعي، معذباً بما أسمع، مروعاً بأمل غير صادق، أن أتخلص من هذا التابوت وأدع عقلي يتجول فوق الأرض التي لا أقدر أن أراها وأصمم خططاً أفرضها لو قدرت... مجرور، معلق ومقطع في هذا الدماغ الذي تجلده أحلام وأماني معزولة في جثة ميتة... ماذا عملت لأستحق هذا المصير؟

ما الوقت الآن؟ أي يوم، وما الساعة؟ وما الفرق في ذلك؟ لا صوت يعكّر أفكاري... أستلقي هنا أنتظر، أنتظر المجهول بينما الآخرون ينطلقون في عالمهم المعلوم وكأنه وحده أعطاهم وجوداً ومعنى: ولكن كيف يكون لهم معنى إن كانوا لا يعرفون أن هناك حياة تستلقي بجانبهم، تتحرّق لأن يعترفوا بوجودها؟ هل الحياة هي ما تعرفه

فقط؟ هل الحيوانات المتواجدة في الظلال بعيداً عن وهج الأنظار. هل هي أشباح بلا شكل أو وجود أو غاية؟

كم من الأشخاص صادفتهم دون أن أعرفهم أو أهتم بمعرفتهم؟... هل يجب التخلص من العقول المفكرة لأنني لا أعرف أنها تفكر؟

هل الحقيقة مفهومي أنا فقط. سلعة أستطيع تشكيلها حسب أهوائي؟ هل قدر علي أن أنام هنا في هذه الزنزانة المظلمة لأفكر في الأمور المرعبة التي سبببتها، لأرى ما لم أراه عندما كنت أتجول في التلال والوديان في هذه الأرض المدممة. ولأفهم معنى الأسى الذي ألحقته بهذه الأرض البائسة؟

أي سخرية هذه... أن أعرف ما لا يمكن مشاركته، أن أقاسي من عقاب لا أحد يشاهده، أن أموت في كل لحظة أستيقظ بها. لماذا تطاردني هذه الأفكار الآن؟ ما التغييرات التي تجتاحني في هذا القبر الصامت؟ أفكار لم تعد تسرع لتدافع عن أعمالي؛ حتى أنني ما عدت أشعر بموجة الكره التي كانت تهاجمني كلما رأيت إليوسياً، قتلة إبني. كسلهم، قذارتهم، ورائحتهم لم تعد تنفرني. أين قسَمي الآن؟ إنهم حثالة منبوذون. وربّي، ولكن هوميليا تدخل بكل هدوء، تغني بنعومة وتحديثي مع أنني مُلقى هنا، لا أقدر أن أتحرك، أن أنطق بكلمة أو أتواصل، لاشيء... مجرد لا شيء. كم احتقرت هذه الفتاة، كم كرهت مجرد التفكير أنها ستلمسني، أنا النيفاري. آه لو سمعتي حينها، ولكن أين الآخرون؟ لماذا فقط هوميليا؟ لماذا؟... لماذا... لماذا...

كانت هذه الأفكار تعذب المريض قبل دخول هوميليا بلحظات. عندما أغلقت الباب كان قد غرق في نوم عميق. كل يوم كالسابق: يستيقظ ليسمع أصواتاً تقطع نومه، وفجأة يموء لغيوبوته. لا

إستمراية ليه، لا يمكنه ملاحقة حديث لدقائق، أو أن يتأمل بحادثة أو فكرة تقفز إلى عقله. إنه يعيش في عالم مرقع بأفكار حالية وذكريات من الماضي.

تتحرك هوميليا وكاريتا في الغرفة التي تسطع بياضاً بياضاً فلورسنت تنبعث من الجدران وتنعكس عن الرفض المعدنية والكراسي. كل شيء يلمع. تلقيان الشرافف القذرة في زاوية الغرفة، وبينما ترفع إحداهما جسده ممسكة بظهره، تفرش الثانية الشرشف النظيف تحته. تمسح هوميليا جسمه بقطع قماش ناعمة ومعطرة، بينما تأخذ كاريتا الفسيل القذر إلى المفصلة. لقد رتبنا نظاماً بينهما، فكل منهما تعرف ما على الأخرى عمله. يحمل اليوم توقعات أكثر من المعتاد، إذ من المخطط أن يزوره اليوم طبيب جراحة الأعصاب ليقيم تقدم المريض. والإجراءات التي يجب عملها لإنقاذ حياته.

سيأتي الأطباء خلال ساعة. دعينا نذهب لتناول غدائنا. أين حقيبتك؟ لقد تركت حقيبتني في الخزانة.

غدائي خارج الباب الجانبي، أردت أن يحتفظ ببرودته. يا هوميليا، فأنا أكره الخبز المبلل. يسرني أننا أنجزنا عملنا الآن. لنذهب.

تحملان غداهما وتنزلان إلى مقهى المستشفى. منطقة عامة تقدم بعض الوجبات الدافئة، وتشكيلة من السندويشات، غالباً للزوار والموظفين. يمتد طاوور المنتظرين لأخذ الصواني حتى القاعة. ولكن الفتاتين بحاجة فقط لطاولة منزوية تجلسان إليها بعيداً عن الآخرين. هذا وقتها الخاص للراحة، وبالرغم من أنهما من الموظفين، فهما تعلمان أن الآخرين يتحملون وجودهما دون ترحيب بهما كمساوين، فتجلسان للأكل والحديث.

تمود هوميليا للإجابة على سؤال كاريتا عند وصولها في الصباح: تذكرين سؤالك في الصباح عن الحجاج ومسيرتهم إلى المعبد؟

نعم، ولكنه ليس ضرورياً. كنت أشعر بالفضول إذ بدا شكلهم غريباً في الشارع.

لا، لا، فأنا أعرف القليل، قاطعتها هوميليا.

لقد شرحت لي فاطمة في العام الماضي عنهم. لا أذكر كل ما قالته لي، ولكنه طقس سنوي. تشعر هوميليا أنها تعرف قليلاً عن الموسم المقدس لأنها تعيش في دسبيريا منذ ثلاث سنوات، ولو أنها مهمشة من قبل النيفاريين الذين تعمل معهم. إلا أن جيران جدتها من الأصدقاء شرحوا لها عن التصرفات الغريبة التي شهدتها في هذا الجزء من المدينة والذي يحكمه النيفاريون.

من المفروض أن يكون كالحجاج المسيحيين الذين يحجون إلى مكان مقدس يجددون فيه إلتزامهم بالمسيح، ولكنه في الربيع. على كل هذا ما شرحت لي فاطمة، وهي مسيحية.

ما الفرق بين الإلتزام والثواب والعقاب؟ لا أفهم ذلك. بدأ على صوت كاريتا الإمتعاض.

إنهم يحجون ليطلبوا الغفران على أعمالهم في السنة الماضية: لهذا السبب يقع العيد في الخريف قبل نهاية السنة القمرية. فالأمر مختلف، إذ يحج المسيحيون في الربيع أي للتجديد. أما هؤلاء الحجاج فيطلبون المغفرة من ربهم

ولكن هؤلاء هم الذين يهاجموننا. يعكس صوت كاريتا غضبها. لقد أوقفوا أختي الصغيرة وهي في طريقها إلى المدرسة وشموها

ورموها بالبندورة وهي فقط إبنة ثمانية أعوام. يرمون النفايات علينا، هل يطلبون الغفران على ذلك؟

تشرب هوميليا من زجاجتها قبل أن تجيب. لا أعلم من يعطيهم الغفران. فهم لا يرمون إلههم بالبندورة ولا يسألوننا.

لاأظن ذلك ولهذا أنا مرتبكة. تجيب كاريتا، والآن هم مصطفىون على رصيف الشارع بمعاطفهم الطويلة السوداء، وشيء كالخمار الأسود على رؤوسهم وأكتافهم. يبدوون كفرسان المعبد في الكتب القديمة عن الصليبيين. يحمل كل منهم راية ذات لون بنفسجي كالشرايين في ذراعي جدتي ويديها، وعلى الرايات نفس الرسمة، حلقة ذهبية وفيها سهمان متعاكسان. إنهم يبدوون متواضعين ولكنني لا أقدر إلا أن أفكر بما عملوه لأختي وللعجوز سبيا. لا شعورياً يطفى جو سوداوي على الحديث الذي تتبادل فيه الفتاتان رد فعلهما حول الحجاج الذين يبدوون لهما شريرين متعالين وخطيرين.

لا ادري يا كاريتا. تجيبها هوميليا بتفكير، يبدو لي أنهم لا يظنون أنهم مخطئون. فمعظم المائلات التي أعرفها، ضرب أطفالها وأهينوا. وهذا ليس أسوأ ما يقومون به. أنظري ما فعلوا بأبي منذ سنوات. لقد اقتلعت أشجار لأبناء عمي عندما بنوا السور، والآن لا يستطيعون الوصول إلى حقولهم دون المرور بنقطة التفتيش.

هذا ما حدث لأخي وعائلته. لقد صادروا أرضه، لأسباب عسكرية كما ادعوا... أكاذيب.

ربما يحتاجون للغفران لأنهم لا يسيئون بما فيه الكفاية. همست هوميليا بسخرية مريرة، وأضافت لا أفهم.

ما الذي تريدین فهمه، هوميليا؟ لقد صادروا بيوتنا في شارع ديسبوندا. جاءوا مع الجيش ببنادقهم، وأمروا السكان بإخلاء البيوت، وهكذا كان. إنهم يذهبون حيث يشاءون ويعملون ما يريدون. يفلقون دكاكيننا، يضايقون أطفالنا، يحطمون عربات الفاكهة، ويستهنئون بأصحاب الحوانيت... ولا أحد يقاومهم. والجيش يحيط بكل شيء. يرتفع صوت كاريتا وهي تتذكر الإهانات والألام التي شهدتها. يلفت إرتفاع صوتها بعض الجالسین في المطعم لتناول طعامهم. تلاحظ هوميليا تعابير وجوههم، ولكنها تفشل في إسكات كاريتا التي تدفع إسمي، أنت تذكرين سبيا العجوز المسكين الذي يبيع البندورة على عربته في شارع ديسبندا قبل الميدان؟

إهدأي كاريتا، إنهم ينظرون إلينا.

دعهم ينظرون، لعلمهم يتعلمون شيئاً. على كل، كان سبيا العجوز يجلس على صندوق في مدخل بيته يوم الجمعة الماضي، وعربات البندورة بجانبه. كنت هناك، عندما أتى طفل من الحجاج، عمره حوالي 9 سنوات، إلى دكانه وبدأ يرميه بحبات البندورة. لم يصدق المارة عيونهم، ولكنهم لم يستطيعوا إيقافه. كان الجنود هناك ينظرون ولا يعملون شيئاً... ثم قلب الطفل إحدى العربات، وتبعثرت البندورة في الشارع ومضى الطفل في سبيله وهو يضحك. وهنا تساءل سبيا العجوز من سيعلمه احترام كبار السن؟

هذا غلط تقول كاريتا بإحباط و غضب، وقد ارتفع صوتها، وتهمج جسمها، واسودت عيناها، وتغضن جبينها. أنت تعرفين هذا، مثلي، والكل يعرفه، ولكن لا أحد يوقفه. إنهم لا يسيرون في

شارعنا طالبين المغفرة، لايرتلون، ويهزون رؤوسهم، ودموع الحزن في عيونهم. ممن يطلبون المغفرة؟ من بيلزياب؟

لا أعرف يا كاريتا، فأنا أجهل دينهم. إنه غريب. يبدو أنهم يؤمنون أنهم فوق الجميع، ولا يحاسبهم أحد. كنت دائماً أظن أن الدين يقرب الناس إلى بعض ليتعاونوا. ظننت أنه يعلمهم ان يحترموا الآخر وأن يحميهم من اللصوص والمخادعين والكاذبين. ولكن الحجاج يتصرفون عكس ذلك، ولا يهتم أحد. لماذا؟ يتحول الحديث لمشاعر الفتاتين، إذ تعبران عن القلق والخوف الذي تكتماناه ولا تعترفان به، ولكنه ينفجر عندما تضطران إلى مواجهة الجو الذي يحيط ببيئتهما، والذي يضرب فجأة بدون إنذار.

آه يا كاريتا، غاب عن ذهني حديثي ليلة البارحة مع جدتي عن الحجاج. لقد بكت عندما ذكرت اسمه فقط. غطت وجهها بطرف خمارها. وبعد فترة، أخبرتني عن ذلك الصباح عندما ضربوا أبي، ثم واصلت كلامها عن المرات الأخرى عندما جاؤا إلى ديسبيريا، أمام بيتها. كانوا ملثمين يحملون قضباناً حديدية. حطموا زجاج بابها، وأمطروها بالسباب والتهديد. فهربت واختبأت في خزانة ثيابها.

ولماذا يقومون بهذه الأمور؟ إنها عجوز ضعيفة: لا تستطيع إيذاهم. تجيب كاريتا وهي تمسك بعطف يدي هوميليا.

سأصل لهذا تجيب هوميليا. لقد كسروا الأطباق. وقلعوا النباتات وانصرفوا. بعدئذ علمت جدتي من الجيران، أنهم حطموا أبواب الكثيرين في شارع ديسبوندا لإخافة الناس، وحملهم على الرحيل. هذا ما يريدون، إرغامنا على الرحيل ليستولوا على البيوت.

يا للفضاعة .

لقد أخبرتني أيضاً عن أمر غريب عندما كانت في جويوا . كان الحجاج ينثرون كرات صغيرة مسمومة، في التلال حيث ترعى أغنامنا، فتتسمم دون أن نعرف السبب . عندما تخبرني هذه الأمور، أشعر بالعجز . لماذا لا نقدر على عمل شيء ما؟ أين جيراننا؟ لماذا لا يساعدوننا؟ أين الدول الكبرى التي تتكلم عن الحرية للجميع؟ لم لا يهتم أحد؟ أخبروني .

لا تنتظران جواباً، بل تجمعان الأوراق والأكياس وقناني الماء، وتخرجان . فعليهما أن تكونا في مواقع العمل قبل زيارة الطبيب مع معاونيه .



كثير من الأطباء يهتمون بوضع المريض . إذ تقع العناية الصحية به تحت رعاية الحزب الحاكم . حتى في حالته هذه، لا يجرؤ أحد على إيذاء هذا الرجل . ولكن زيارة جراح الأعصاب المتوقعة، ترفع الإهتمام بحالته إلى مستوى آخر . أيمن أن يصدر تكهن قد يشير إلى إمكانية شفائه؟ هل هناك فرصة في عالم الطب الضبابي، لإمكانية عودته لقدرته السابقة؟ أمور كثيرة في الميزان، وأرواح كثيرة ستناثر، وأمر كثيرة مجهولة، قد تقلق الوضع الذي استقر منذ دخوله في الغيبوبة .

يقترّب وفد من الدرج المركزي إلى غرف المريض . البعض في بزات عسكرية، وآخرون في بذلات رسمية، والطبيب في لباس الجراحين الأزرق . تحديق هوميليا وكاريتا في هذا الجمع المهيب . لقد نسيتا مدى أهمية مريضهما لأهل نيفاريا، فقد مضى وقت طويل منذ زاره أحد،

حتى من الأطباء.. ولكن ها هم قادمون، مع ضجة من الأصوات. ولكن صوتاً يبرز بينهم، قد يكون ذلك لأهمية مركزه كجراح للأعصاب، وقد يكون لأنه يفرض سلطته بقوة وإقتضاب أوامره. ينتبه الجميع لتوجيهاته لهم في وقوفهم حول سرير المريض. ثم ينطلق في محاضرتهم، كما يبدو لهومياليا عندما التفتت لصوته، وتبين لها أنه يتكلم دون أن يكون قد فحص مريضها سابقاً.

أي صوت هذا؟ أه، أعرف... هيه، طج، إركع على ركبتك، هيا يا كرة الشحم... إستعطفني... يا إلهي ذاك الصوت... إنه يحرك... ماذا؟ أعرف! يا إلهي... هذه النبرة العالية، وهذا العبوس، ذاك الزنديق من الأكاديمية.

ماذا تفعل هنا؟ أي كابوس يصيبني يا إلهي... أنت فوق أيها الشيطان... أي مصاب يأتي بك هنا وأنا مخصي... لا صوت، ولا نظر، ولا قوة أرميك بها، يا شيطان الجحيم! فأنا هيكل بلا حراك تحت رحمة أي كان ممن يحدقون أو يهزمون أو يسخرون من هيكلي الفارغ. أية إهانة! وجهي الميت المنتفخ، وجلدي المبقع، أمور للهزة والإحتقار... عاجز... عاجز.

أنهزأ مني الآن أيها اللعين؟ أنتسلى وأنت تدعوني بكرة الشحم والسمين والمنتفخ هذه اللعنات المخزية التي تجرح حتى الآن... القرعة الريفية. كنت جاهزاً لإستخفافك وسخريتك. لقد غرست سكاكين ألفاظك عميقاً، جعلتني أكره نفسي، وأتوق للإنتقام... لأن أجرك عميقاً، وأراك تبكي، وتتلوى وتركض بعيداً عني... ولكن ذلك لن يكون أبداً.

لقد عبثت بي، الأحمق وحيد ينتظر، وينتظر ولكن لا ينتخب أبداً.
سرقت ثيابي وأنا أستحم، أخفيت طعامي، وضحكت عندما عجزت
عن إجابة الأسئلة. كتلة الشحم، رمز الغباء، الأبله والأخير دائماً على
مائدة الطعام، المهرج يضحك الآخرين، كاريكاتور محترق، مهزأ وحثالة
المهرجين.

أكرهك. أية سخرية الآن... كراهية تضطرم داخل شكل عاجز
أبكم. السخرية الأخيرة التي ترميني بها. تخرجني عارياً من الحمام،
وتحبسني داخل الخزانة المعدنية... وصوت الضحك خارج قفصي يرن
بالهزه، والإستخفاف، الطرق بالقبضات والقناني على الخزانة
المعدنية يصم أذني... أبكي، ومن خلال دموعي، انظر من الشقوق
خارجاً، فأرى الطلاب يتلوون بالضحك ووجوههم تسخر متشفية،
وكلهم... كلهم يضحكون علي... القرد السمين في القفص... منتهى
العار. ألاشيء... الصورة المسحوقة بالأقدام للخنوع الذليل.

أقسم... أقسم لنفسي... ألعن الرب الذي خلقني... وأؤمن بتلك
اللعنة... لن أخضع لمخلوق ولن أحترم مخلوقاً سأخفي احتقاري لمن هم
دونني وراء ابتسامتي الصفراء... سأسير في هذه الأرض القاحلة نبتة
كراهية مشتعلة. لا أخضع لإنسان، ولا أطيع إلا طموحي وغضبي،
التوأمين اللذان يأخذان بيدي إلى السلطة... هكذا كانت حياتي منذ
تلك اللحظة.

بينما تقف هوميليا منصتة للطبيب، تمر الدقائق، وتشعر بأمعائها
تتقلص، ويفمرها شعور بعدم الراحة. تتراجع صوب الباب، آملة
بالهرب من الجو الخانق. تشعر بمجز المريض، وتعرف أنه يتوق
للحرية. لا معنى لمشاعرها. ما مصدر هذا الأسى : أية علاقة تربط
هذين الإثنين، وتربطها به؟

آيتها الممرضة، أين تذهبين؟ سأحتاج لللائحة المريض. لاتتركي
الفرقة. أسمعين؟

نعم، أسمعك، سيدي، ولكني ظننت أنك لا تحتاجني إذ بدأت
تشخيصك دون أن تلزمك اللائحات.

لا تسألني سلطتي، آيتها السيدة. سأخبرك متى يمكنك الخروج،
أفهمين؟

نعم، سيدي.

كان رد هوميليا غريزياً، إذ تتكلم باسم مريضها، بتكافل غير
مفهوم، هذا الرجل الذي لم تره سابقاً أو تتكلم معه. إنها تعرف
وتشعر في أعماقها طبيعة هذا الطبيب الهدامة التي بشكل ما كوّنت
شخصية المريض الذي تعنتي به، وقد أصبح عاجزاً ووحيداً في العالم
الذي خططه وأوجده.

لا تفهم هوميليا مشاعرهما: ولكنها تدرك فقط الشفقة التي تهزها
لمريضها في حضور هذا الطبيب. شيء في داخلها يرد على سلوكه
الشرير المتعالي والأناي. إنها تعرف أنه لا يعرف غيره. العالم موجود
له وحده. إنه يقف هناك. يتدفق بالكلام لهؤلاء المتملقين، وهم
يبتسمون له وكأن حياتهم مرهونة برضاه. ولو أتيح لهم الاستغناء عنه
لما منحوه لحظة من إهتمامهم. كم تتوق للذهاب إلى البيت حيث
أحباؤها، تحتسي الشاي معهم، وتمازحهم بحب ومرح. كم تمقت عالم
هؤلاء الحجاج والنفاريين الذين يتسلقون أكتاف بعضهم في سبيل
التقدم.

تدرك هوميليا ببديتها العلاقة بين الطبيب ومريضها. شيء في
لهجته، نغمتها الحادة الفياضة بالإحتقار والإزدراء، تشير إلى شعوره

بالإنتصار على هذا الشخص المنبطح المهزوم. لم يأت ليشفيه. بل ليتفاخر على الرجل الذي حكم البلاد فترة طويلة، رجل إحتقره وحسده منذ أيام الدراسة قبل أن يتوجه إلى كلية الطب، وعدوه إلى الحربية. سارت حياتهما في دوائر مختلفة، ولو أن كلا منهما تتبع أخبار الآخر. ولاحق خطوات حياته ومهنته، لدرجة الرغبة في الإجتماع بعدوه بغية تحقيره أمام الجميع.

آه يا هوميليا، إنك تقفين في ظل الشر الجسم، ولكك يا بريثي لا تعرفين ذلك. ما أشجع مجابهتك له، وأنت مجرد ممرضة من إليوسيا... إنها ليست شجاعة، إذ ما مدى معرفتك بالشجاعة؟ إنها شخصيتك. إنها أنت... قدرتك على الإحساس بالناس، تعرفين الطيبة، وترين الشر يرتدي ثوب الطبيب الأزرق. إنك تحترمين الشخص وليس رداءه أو لقبه. فالحمار حمار مهما ارتدى... ها! ألبسوا الخنزير وشاحاً وتاجاً وتظل رائحته منتنة. أنت تعرفين ولا تتحنين. النيفاريون ينحنون. لعنهم الله، إنهم يزحفون إذا لزم الأمر، فالنجاح يتطلب ذلك. ليس في إليوسيا. سعادتك في البيت وليس في العمل. تتمتعون مع بعض ولا تسحقون بعضكم. إنه أسلوب لم أفهمه أبداً. يا للجحيم، كنت أكره ذلك وأهزأ به. كنت أهزأ بك لأنك تتركين بلدك جوايا للعناية بي. أية متعة... كنت أحد الجنود، أحد الوحوش الذين سببوا الكساح لأبيك! كسحته؟ لقد شرحت للحجاج كيف يفعلون ذلك. أية إهانة، وأنت حتى لا تعرفين بمن تعتين وما فعلت لعائلتك. هل كنت تظلين بهذا اللطف لو عرفت؟

الآن... الآن في بيت الموتى الصامت هذا أشعر بما لم أفكر به سابقاً- فمعجرتي هي دليلي. أعرف طباع النفارين ودوافعهم، أي خوف

وراء طموحهم. أي ثقل يحملون خلال قرون من العذاب والعنف. يحملون أسلافهم على ظهورهم مثقلين بالأمهم وذنوبهم... وأية رغبة في الإنتقام تضطرم في أرواحهم. أي شعور بالنقص يدفعهم لتدمير ودفن شعورهم بالذنب. أعرف هذا وأعمله لأنني نيفاري. لقد غمرني الخوف الذي يملك من يتعرضون بالأذى والقتل والتشريد من بلد لآخر محتقرين من الجميع، أعرف تأثير هذا على النفس... الإنتقام يتغلب على الرحمة والشفقة. ولكني لا أعرف الإليوسيين. كنت أظن أنني أعرفهم... كانت غطرستي توهمني بذلك.

أريد اللانحات الآن، أيتها الممرضة، بسرعة، بسرعة، فليس لدينا وقت كثير. هؤلاء الناس مهمون: لا نقدر أن نجعلهم ينتظرون فغليهم أعمال أخرى.

تسلمه هوميليا اللوحة بإزدراء ظاهر، يشعر الطبيب بذلك ولكنه يتجاهله، ويشير للمجموعة بالدخول لغرفة مجاورة حيث وضعت حاسبات أمام الحائط المقابل. يجلس على كرسي عجالات أملم الشاشة.

دعوني أريكم أحدث تخطيط لجمجمته: فهو يشرح وجهة نظري هذه صورة من أعلى لأسفل. لاحظوا المناطق البيضاء داخل الجمجمة... الدم. ذاك يخلق ضغطاً على الدماغ، ويمنع الحركة الطبيعية. لم يعد الدماغ يعمل ليسيطر على دوافع الحركة. هذه حالة صعبة. لاحتركة بالمرة. لقد تحول إلى كائن يتنفس بدون منطق ورد فعل أي كان. لا لزوم لإبقائه على قيد الحياة، إلا احتراماً لمركزه السابق. إهدار للمال والجهد. ولكن هذه ليست مسؤوليتي. فالسياسيون يحصلون على حق وجودهم.

بهذا التلخيص المختصر ينهض الطبيب عن كرسيه، وبلهجة روتينية يسأل المجموعة إذا كان لديهم أسئلة، وهو يدرك أنهم لن يفعلوا. ينحني لهم ويخرج من الغرفة وهو يناول هوميليا اللائحات التي لم ينظر إليها.

إستخفاف الطبيب الواضح بمريضه الملقى، وإشمئزازه وقرفه من اضطرابه أن يظهر إهتماماً به، يعكس المعجزة المسيطرة على طبقة المهنيين في نيفاريا: من السخرية أنها من صفات المريض البارزة.

كلا الرجلين لا يكتان أي إحترام للحجاج بالثياب السوداء، الذين يسرون في الشوارع مظهرين توبتهم، ولكنهما لا يبديان علناً كرههما لهم، لأنهما بصراحة إستغلا معتقداتهم الخرافية لمصلحتهما.

يترسخ في أعماق هؤلاء الرجال إعتقاد مطلق أنهم يتفوقون داخلياً على الجماهير، ليس لأن دينهم يبيع هذا التفوق، فكلاهما لا يؤمنان بدين آباؤهم. ولكن لأنهما يؤمنان بتفوق متأسل لديهم على العامة. كلاهما يتقبلان ضرورة وجود طبقة حاكمة، حتى لو فرض هذا الحكم بالقوة، فالإستقرار يتطلب ذلك. لهذه الغاية يصبح إستغلال الجماعات وخاصة المتدينين، جزءاً طبيعياً من الحكم. هذا الإعتقاد يجيز السيطرة بالتحايل والقوة، لمن لديهم من المعجزة ما يمكنهم من الإستيلاء على السلطة، ناسين تحذير الأنبياء القدامى من الهلاك المحتوم.

اليوم الثالث: الندم

بعد مغادرة الطبيب ثم هوميليا وكاريتا، وقد إنتهى يوم عملهم، يستلقي المريض بهدوء، وقد غفل عما حصل بعد نومه أو غيبوبته. في المساء تطفأ الأنوار في أنحاء المستشفى ما عدا نور القاعة الخافت: يفمر المكان هدوء تدريجي، كما لو أن الحياة توقفت، وطفًا سكون على الجو ترقباً لدخول أمر مجهول. يمر الوقت هادئاً حول الشخص اللاحراكي وقد إنبتق فجر يوم جديد. ما أغرب أنه وسط هذا السلام الظاهر، يصحو دماغ في محاولته للتيقظ، وحيداً في عالمه الأسود، وعقله يترنح على هاوية من الفراغ.

أنا الطريق إلى العذاب الأبدي. 'دانتي' بنفسه ما كان ليقدّر أن يخطط مصيري. من كان يمكنه التفكير بزمان لانهاضي مملوء بعقاب الذات على كل أعمال الغدر والخيانة للجار والصديق وحتى القريب؟... 'إفقدوا كل أمل يا من تدخلون هنا' نحتها دانتي بنفسه على باب جهنم. ولكنه لم يدخل جحيمه. إنه فقط تألم لعذاب الآخرين، لأن لديه ضمير حي. أنا أواجه نفسي وعقلي الذي خطط الخيانة. جحيمي الذي لا مفر منه... لا أملك الحياة ولكن أفكاراً، وذاكرة متهيجة تدفمني إلى زنزانة اليأس هذه، وتجلد روحي العارية بلا شفقة.

لم هذا العذاب؟ فانا لا أوّمن إلا بإحتياجاتي وملذاتي وطموحي. لا يحاكمني رب ولا جهنم تنتظر دخولي. لا خوف من لعنة أبدية تحينني إلى أحرق مأفون. احتقر الضعف وخرافات المجاذيب السخيفة... فما الذي يحيل أفكاري إلى أشواك تنفرس في ليلي المظلم كحد الخناجر عميقاً في هذا العقل الذي لا يهدأ ولا يجد سلاماً؟

هل علي أن أدرك الآن أنني لم أقدر أن أتحكم بمصيري؟ هل لبقية علاقة تربط هذا المهرج المنتفخ بأولئك الذين أحترقهم بالرغم من كل رغبة بالتخلص من كل المشاعر؟ أتراني أواجه إلهاً شريراً يجلس صامتاً وهو يستمع ويضحك على أفكارى المتمرتدة؟ هل رسم لي هذا القبر الجهنمي الذي يحيطني بظلام مُطبق ليَجبرني على مواجهة أفكارى، العذاب الوحيد المتروك لي؟ هل علي أن أنظر إلى الورا، وأتذكر وحشيتي، وأحاسب نفسي؟

حتى الآن تجثم تلك المذبحة في هذا الظلام. لاتبدو بعيدة مع أنها حدثت منذ زمن بعيد، خمسين عاماً على الأقل. راقبتهم... بل لم أغالط نفسي، أنا الذي أمرتهم بذبح أولئك الأبرياء... مجرد نساء وأطفال محتجزين في مخيم للاجئين

حاصرته بالمصفحات كيلا يهربوا. كنت أنظر في عيونهم الطافحة بالشهوة وهم يمسكون بالفتاة، فيفتصبها أحدهم، ثم يدفعها إلى جندي آخر. لم أر في حياتي وحشية كهذه. ولكنني كنت أسوأ... فقد إبتهجت بوحشيتهم وإستمتعت بها. لماذا؟ من أكون حتى أنفمس في الدماء، وأستمع بفرح إلى صراخ القتلى وأضحك لبكاء الأطفال؟ لم أهتم ولم أشعر بالخجل... فقط عنف، الشراسة والعنف. أهذا مصيري النهائي؟ هل سأبقى في هذا الظلام الأبدي يغمرني الندم، حبيساً لإنتقام إله ماكر خبيث؟

فليكن. لا أملك فيرجيل ليقودني في هذا المجهول... إذأ، يا ديماس، لنذهب معاً نقابل الشياطين التي سنقابلها، نُعرّي أرواحنا، فليس لدينا ما نخافه. فلا مهرب من هنا...

ولكن المريض لا يسيطر على وعيه. فجأة يتملكه هبوط في دماغه فيصمت. ولكن في لحظات صحوه عندما تخترق الأصوات ظلامه،

يتجاوب بفضب ويأس كرد فعل تلقائي لعجزه. يدخل الآن متحدياً، بعد كل شهور العزلة والعذاب، تلك المرحلة الأخيرة، ليل الروح المظلم. فالمرضى في جسمه، والغرفة التي يستلقي بها، والمستشفى كله، والمدينة القديمة المبعوثة دسبيريا تبدو منفرسة في الزمن، كقبور تعكس وعي الإنسانية الحبيس والإدراك المندثر إلى الأبد عاجزاً عن الخروج من ظلامه والإنزلاق إلى النور. دسبيريا المدينة القديمة بكنوزها الوفيرة الممتدة منذ آلاف السنين، تبدو وكأنها تضم أحلام البشرية في عهدها العظيم كمصباح للعلم يتوج الإنسانية. من ذلك الماضي تتبعث المعرفة والإدراك لمن يريدتها ويبحث عنها.

على الخريطة، تبدو نيفاريا كقلامة ظفر في إبهام ممتد من يد مضمومة، تحيطها من ثلاث جهات شعوب مجاورة، ومن الغرب البحر. إنها أرض تكسوها التلال والوديان المغطاة بالصخور والرمال، مقر حضارات قديمة إندثرت تحت الأراضي القاحلة يتلظى أهلها بالحرارة المرتفعة صيفاً وتلسمهم الرياح الباردة والثلوج شتاءً. بالرغم من الطقس القاسي، عاشت شعوبها ألوف السنين يتقاتلون أو يتعايشون برضى وإن لم يكن بسلام.

كان معظم المعتدين شعوب أجنبية، إحتلت البلاد لأنها تقع بجوار شعوب أخرى أخضعت للإحتلال. تعكس دسبيريا تاريخ نيفاريا: كانت المدينة القديمة المحاطة بسور موطناً لشعوب مختلفة بلغات وعادات مختلفة، وهم بدورهم حاربوا بعضهم على مر العصور. كان النبي العظيم ثورثانا قد لاحظ أن دسبيريا تعكس الكرة الزرقاء الضخمة السابحة وحدها في الفضاء: يراها الناظر إليها من بعيد رائحة في تفردتها، ولكنها من القرب تبدو كحطام مرآة بألوان تعكس أحلاماً مؤجلة وعدالة محرومة.

نتجت مقاطعة نيفاريا من انهيار إستعمار ترك البلاد مقطعة إلى قسمين بشعبين مختلفين عرقياً. الأليوسيون ثلثا سكان البلاد الأصليين. رفضوا التقسيم الذي فرض عليهم، ونتيجة لذلك، خسروا أرضهم ما عدا قسم صغير. للنفارين المتفوقين عليهم عسكرياً. ولا تزال إليوسيا محتلة حتى اليوم.

حي سركو

لهذا السبب يخلق وجود الحجاج بهذه الكثرة في الأماكن العامة توتراً لدى الإليوسيين الذين يعيشون ويعملون في البلدة القديمة. وجودهم العلني في اليوم الثالث، من الموسم المقدس، يوم الندم، يتخذ صفة تطفلية إذ يتجمعون جماعات في زوايا شارع بيوكريسز بطوله، حيث تعرض خطاياهم في دائرة من أربع شمعات مشتعلة على علم قرمزي يرفرف على كل أعمدة الكهرباء، وقد إنحنوا بثيابهم السوداء، يصلون ويهمسون ندمهم كما جاء في نبوءات كتاب الحكم. لقد إستوعبوا العقاب الذي يلحق بمن يتجاهلون أيام الإعتراف والعقاب وها هم يطلقون ترانيمهم الجنائزية الحزينة على ما إقترفوا من أخطاء.

إسمعوا صوت البوق الذي يرن فوق العاصفة،

يدعو للإنتباه هذا الجمع الحاشد:

ينتشر الخوف كغيمة سوداء فوق هذه القبيلة

التي تنتظر الحكم الذي سيصدره الإله القدير.

هذه الترنيمة الجنائزية تلو على صوت السيارات والشاحنات التي حشرت تحت الغيوم الثقيلة التي جللت المدينة خلال موسم الإعتراف بالخطيئة والعقاب المنتظر. والأغرب في الأمر هي الصور الإباحية لخطايا قديمة عرضت على لوحات ضخمة علقت على البنايات، نساء

عرايا مضطجعات على مناشف استحمام، وهن يدلكن سيقانهن بالمرطبات، نساءمرحات ورجال يحتسون الخمر، مجلات دعارة تعرض معلومات جنسية. ولكن للإليوسيين كهوميليا وكاريتا، الندم الظاهر يقنع حقيقة أعمالهم ويهزئ الموسم الذي يمرضونه على العالم.

أهل إليوسيا، بعكس النيفاريين، يعيشون حياة فقر وحرمان، عاجزين عن التغيير بسبب فقر البلاد وإعتماد حياتهم على نزوات السلطة المحتلة. لا يستطيع أحد التنقل في إليوسيا بلا إذن من ق. إن التي تتحكم بمئات الحواجز في جميع أنحاء البلاد. لا أحد يدخلها دون إذن ق. إن كذلك لا أحد يفادر بيته دون هوية، ولا يمكنه قيادة سيارته دون اللوحة المرخصة، ولا يسمح لأحد بالسفر في الطرقات الجديدة التي شُقت للحجاج القاطنين في مناطق من إليوسيا بمستوطنات يحرسها ق. إن. تنحدر الحياة في إليوسيا إنحداراً يتعذر إجتنابه نحو السلبية اليائسة والتفريب. وبين الحين والآخر تفجر الكراهية التي تأصلت في نفوسهم نحو مضطهديهم في أعمال بربرية شائنة.

يجد المؤمنون من النيفاريين عزاءً في كثافة شعائهم الدينية خلال قرون من الإلتزام بمعتقداتهم القديمة. الأولوية والتقاليد يستمران في توحيد الناس بغض النظر عن التغييرات التاريخية والتقدم العلمي. إعادة قيام الوطن في إليوسيا يستند إلى سلطة الأنبياء الذين تتباؤا بعودة النيفاريين إلى البلاد المتفق عليها بمواثيق منذ قرون.

يجد الأليوسيون أنفسهم كسلف للشعوب المقهورة في الحضارات القديمة، الذين إستعبدوا وأجبروا على التنازل عن حقوقهم لمحتليهم. بالرغم من كونهم ضحايا، يعتقد النيفاريون أنهم قوة تهدد وجود

نيفاريا، وتقوي الحكومة هذا الإعتقاد ليفرسوا في قلوب الشعب الخوف والإذعان للسلطة.

لهذا لاتتوانى السلطة الدينية وخاصةً المقدسون من إنتهاز الفرص لفرس عدم الإستخفاف بقوة التنبؤات في نفوس المؤمنين، بما فيها القيام بزيارات للرجل المسؤول عن تسلم نيفاريا زمام الحكم، الجنرال ديماس. في هذه اللحظة بالذات جمع الكاهن المقدس مجموعة صغيرة من الحجاج حول سرير المريض.

بهدوء، أريدكم أن تحيطوا بالسرير، لا تقتربوا كثيراً، أتركوا مسافة محترمة من فضلكم.

يذكر الكاهن المقدس الجماعة، أنهم جاءوا ليصلوا للمريض، يقترب إثنا عشر حاجاً متلفعين بثيابهم السوداء من السرير، وقد احنوا رؤوسهم، وهم يهزونها بصمت، وقد تدلت لحاهم على صدورهم، وأسندوا كتب الصلاة إلى بطونهم.

كما تعلمون، لقد مضى على رئيسنا في هذه الفيبيوية ثلاثة عشر شهراً. قلائل يتوقعون له الشفاء ولو أن هناك من يعلمون أنه ترك في ساحة المعركة كميته وإذا به يعود لقيادة جيوشه للنصر. إنه رجل قوي ذو إرادة. لم يظهر أحد في تاريخنا الحديث أكثر ولاءً منه لهدفنا... عودة بلادنا لأصحابها الشرعيين. إنه قدوة في قيادته، إنه الإيمان مجسداً فهو يعرف كيف ينجح في مقاومة الإليوسيين وهو يعرف أن على العالم أن يفهم أننا لا نريد شراً بأحد. فنحن أكثر من نريد السلام. نحن بطبيعتنا شعب مسالم ولا نريد سوى نشر حكمتنا ونمط حياتنا الروحاني السامي في هذه البلاد. إننا ننفذ أوامر أنبيائنا ولسنا سوى خدم متواضعين في طاعة الرب. وهذا الرجل هو المصدر المقدس لقوتنا. يجب أن نصلي لشفائه.

علينا أن نتذكر جميعاً كيف أحضرنا إلى أرض الميعاد وتمكن من إعادة موسم الغفران والثواب. نحن ندين له بالشكر صلوا بقلوبكم لروحه لتمحي خطاياهم حتى لا يقع في الثواب والعقاب. لقد أعطى الكثير للبلاد. أرجوكم أن تصلوا بصمت. وسنفادر الآن.

أعلن مجلس الكهنوت الأعلى أن الموسم المقدس في هذه السنة يتميز بصورة إستثنائية لأن الجنرال الذي دشنه ليكون ذا دلالة خاصة للنفارين، على ضوء إعلان النبي أن يوم الدينونة وشيك الوقوع، يستلقي مصعوقاً في وقت تحقيق النبوة وعودة النفارين لأرضهم المقدسة. ولا بد أن القدير عرف عن إلتقاء هذين الحدثين معاً، وهكذا أعلن هذا الموسم كت تحقيق للنبوة، بمجهود هذا الرجل العظيم. إن دمجهم النبوة المقدسة بالسلطة العلمانية والحكم العسكري على أرض إليوسيا، يبرر توسعهم على حساب حقوق ومطالب الإليوسيين.

ما أسخفهم! تآتون للصلاة من أجلي: يا للسخف: صلوا للإله الذي اخترعه أبأؤنا لنسيطر على الشعب خلال القرون الماضية... أي إنقلاب. أنتم تؤمنون كي تتمكن الأقلية من الحكم. الأمور لا تتغير. (فئران وقادة): هكذا كانت الأمور دائماً. القساة يحكمون: والبلهاء يتبعون. تعلمت ذلك باكراً: علمني إياه أبوليون. دع الرب يحب الأغنام: يعتي بأرواحهم ويهيئهم للإستعمال. لا يحتاجون سوى الإيمان بوجود ثواب لعذابهم. حتى الآن في العصر الحديث، تزحفون نحو هذا السراب...

أيها الحجاج. أنتم خليقتي... كمشب يفذي خطتي لمصادرة المزيد من الأراضي، دائماًعلينا أن نسرق أراضي أكثر. ولم تعرفوا أبداً... يا إله السماء... تأخذون تخطيطي وتتوسعون به. تبدون تعصباً لم أعلم

بوجوده، إيمان يعميكم عن الزمن، والمنطق وحتى القانون... تدعون أنه لا حاجة لأن تكون هناك شرعية لإسترجاع بلادنا... لقد وعدنا بها الله بمواثيق قبل ألوف السنين. أنا ببساطة أستد إلى حماسكم وتمصبكم. التهديد والقوة... لا تحاربوا حسب الأصول... المفاجأة، الإندفاع... يغلب الجميع.

أيها المجانين، أنتم تعيشون في عالمي... المستوطنات. أنا أسكنكم على أرض إليوسيا... وأمنحكم صفقات مربحة... كل ما عليكم فعله هو مهاجمة الإليوسيين. إحرقوا محاصيلهم، إقلبوا حقولهم، واهدموا بياراتهم وبيوتهم. صعبوا حياتهم كي يرحلوا.

كنت أعلم أن الإليوسيين سيقاومون ويجعلون السلام مستحيلاً. أنا الملك الجديد أغري الشعب بتقبل إرادة الله الحتمية. يرددون نبوءة الأنبياء كحقيقة لا تقبل المصالحة، وما علي سوى قيادة المسيرة. والآن أنا ملقى هنا بلا حياة، ولا قدرة لأخبركم كيف إستعملتكم... ولماذا أفكر بهذا... فأنا لن أكتشفه. أنتم مكملات آدمية لتحقيق نيفاريا، وأنا لا أهتم بكم أكثر من الإليوسيين... كما أن لديكم موسم الندم والغفران ليفسل حماسكم وتمصبكم الذي سبب وحشيتكم... لقد لفقت هذا الموسم من مخطوطات قديمة ليوافق معتقداتكم... وطاعتكم تقوي إحتياجاتي السياسية. هذا الفش يؤكد لي أن لقب شعب الله المختار يضمن طاعتكم العمياء ونجاحي المطلق... الحاجة تدفع الطموح.

لقد ذهبوا... الصمت فقط وظلام الكهوف. أنا وحدي الآن... أفكر بصورة مختلفة عندما أكون وحيداً...

شيء ما يصطخب في نفسي عندما أسمع أعدائي القدامى أو
السخفاء الذين إستعملتهم...أو هوميليا .

إنهم يحركون إتجاه تفكيري... أتمتع بالدفاع عن أعمالي، إنه سهل
مع الحمقى والأبرياء... ولكن عندما يحل السكوت، عندما علي أن
أواجه نفسي، عندما تتراجع لذة الإيذاء... عندها يتدخل شيطان
الشك ليهدم ثقتي... ثقة بنيتها للدفاع عن الوحشية التي وجهتها
للإليوسيين، الذين ككل من وقموا تحت أقدام الإحتلال. يجب أن
يموتوا... ولكنني الآن أتفتت وأنهار أمام هذه القوة الشيطانية التي
دفنتها مدى سبعين عاماً، طيلة عمري التوراتي الذي عشته ما وراء
نطاق اللعنة، يلاحقني الآن... لأنني وحدي... القاضي والمحلفون
والشاهد الوحيد على هذا العذاب الموجه، هذا الألم الذي يهاجمني
في مدفني داخل لحمي المتعضن...

بعد مغادرة الحجاج يسود الصمت قاعات المستشفى، وسرعان ما
تصبح البناية كلها صامته كقبر المريض. الصمت هو ليله، فترات
طويلة من الوقت بلا تدخل يشغل عقله، الذي يستيقظ ولكن لا
يتجاوب بدون صوت، صفارة إنذار، أو إنفجار بعيد. لهؤلاء يتجاوب
تلقائياً، يصبحون كمنجنيق لأعمال سابقة أو قرارات إتخذها ونتائج
تسبب بها.

لقد أوجد موسم الثواب والعقاب المقدس بمساعدة الكهنة ومجلس
الأثار. يشعل الموسم توهجاً دينياً يمنح الكهنة سلطة مباشرة في حياة
الحجاج اليومية. إنه يحمل تهديد الثواب والعقاب للجميع بما فيهم
الذين يستخفون بسلطة كهنة الدولة. لقد ارتفع مقامه لدى السلطات
الدينية منذ عمل على بعثها من نبوءات ثورثونا، نبي عاش قبل 3500
عام.

تحمل نبوءات ثورثانا معاني وجودية للنفارين إذ تتادي بتحقيقها في الحاضر، في سنوات غير معينة في بداية القرن. ويخدم الخوف من الثواب والعقاب المطلق غايات السلطة الدينية والحكومة.

توجد نبوءات ثورثانا في مخطوطة بالية من البردي إكتشفت صدفة قبل ستين عام. وبما أن النبوءة تلعب دوراً هاماً في حياة المريض فقد أحضرت ليفهم الجميع مغزاها.

كتاب الدينونة للنبي ثورثانا

في تلك الأيام لم يعرف أحد دينونة الله رب السماوات، مع أنهم عرفوا غضبه وخافوا من ثوابه وعقابه. لم يعرف أحد على أي أساس من العدالة تقوم قاعة الحكم الإلهية، ولا في أية ساعة سيكون يوم الدينونة. ولكن الجميع إعتقدوا أن ذلك اليوم سيقع. فليسمع كل من يستطيع نبوءة ثورثانا لأنه يتمتع بصوت الله ويرى ما سيكون:

بينما كنت نائماً رأيت غضب الله ينكشف.

منظراً مريعاً، مخيفاً للناظرين.

عن المصائب التي حلت بكلاب الحروب الشريرة

لجرائم إقترفوها على أبناء جنسهم لا تتجاهلها العدالة.

رأيتهم متجمعين أمام العرش الذهبي.

وجوههم يملأها الرعب لمصيرهم المجهول:

وحولهم إرتفعت ترنيمة جنازية مؤلمة.

مناحة حزينة، أبكتني على هذا الحشد البائس.

ولكنهم لا يستحقون الشفقة، كما علمت،

لأنهم في حياتهم المليئة بالجشع إستخفوا
بالقانون الرئيسي الذي يهب الحياة للجميع،
ويعلم المحبة للجميع، ليتعلموا كيف يسامحون.
ثم رأيت أمام عيني منظراً عميقاً،
وقفت مع هذا الجمع صامتاً مسحوراً،
إذ في الأعالي إندفع طائر فضي عبر السماء،
ممزقاً زرقته البراقة بصراخه المخيف.
وما أن سمعنا تلك الصيحة، حتى رأينا
إنفجاراً من اللهب الأحمر يحطم الزرقة وينفخ
مندفعاً، كأنما من فرن أعدّه شيطان مجهول
متحدياً الإله الجالس على عرشه.
ثم، ودون إنذار تحولت السماء إلى رماد منصهر
يسقط من قبتها، حاجباً شمس الصباح ويتحطم
كرغوة حارقة، ويلقي حجاباً قاتماً مخيفاً
على جميع السائرين ويفطيمهم بوشاح مروع.
هذا المنظر القاتم يزداد كثافة، إذ إنكشف
في دوامات حول الأقدام المفطاة
تاركاً لوحة مخيفة قد يحييها الموت.
ثم انبعث صوت بوق فوق العاصفة
يدعو الجميع إلى الإنتباه:

وانتشر الخوف كفيمة قاتمة على الجمع
بانظارالحكم الذي سيصدره القدير .



يوم الدينونة هذا الذي أصفه سيتحقق،
في الوقت المناسب قبل نهاية ثلاثة آلاف عام .
وسيفخاف كل الأحياء حينها من الإنتقام،
لأن أعمالنا غير الإنسانية ستصبح خطايا يسمعها الجميع .
وهؤلاء الواقفون للحكم هنا قد قزموا في حياتهم،
بأعمالهم غير المعقولة، ما أراداه العقل،
بينما يقف شهود سلوكهم الشرير،الذين ماتوا .
ضحايا شقية لمذابح وحشية إقترفها أولئك الكاذبون .



الأجزاء الباقية من المخطوطة معطوبة، وبينما يظهر أنها تكملة
للنبوءة، لا يمكن تقديمها في شعر يتكيف مع البداية
فجأة وقفت وحيداً، غير مرئي في المساحة الشاسعة
ويرفرف الشعور بقوة حضور يوم الثواب والعقاب
الذي يظلل سماء الليل كمصير وشيك الحدوث
حجاب كثيف من العار المتواصل سيهبط على هذا المكان
وعلى الذين بلا ندم ذبحوا أقرباءهم .
عندها أدركت أن علي أن أسجل ما سيفرسه الثواب والعقاب

في عقول وأرواح الذين غدروا في حياتهم بأقربائهم
ليعرفوا عظم مقدار غضب يوم اللعنة.
وبينما كنت أرتجف تحت المظلة السوداء
المرصعة بنقط دقيقة لا تحصى من الضوء،
سمعت ضجة مخيفة من فوق،
والتفت القبة بشكل جداول من الشرق إلى الغرب،
وانقضت على الأرض موجة متلاحقة من الغريان السود.
ثم شق سيف الله المظلة،
وصب نور الشمس الأبيض المتلألئ،
على التلال المظلمة في الأسفل.
سمعت أصوات الدينونة تقرع
من خلال إشراق ذلك النور.

هناك وقفت شاهداً على يوم الدينونة،
بينما إرهابيو الإنسانية، في تلك الأيام القادمة،
واجهوا غضب يوم الثواب والعقاب الحق
ليدخلوا في أبدية من العقاب اللانهائي.
وتحرك من أطراف التلال البعيدة المظلمة،
جماعات من الرجال البائسين إلى مصيرهم المحتوم،
واخترق نور الشمس الظلام ليكشف
صحراء من الرمال البيضاء حيث أولئك الملعونون
سيسمعون الحكم عليهم، بينما ضحاياهم يتدفقون

حولهم بكثافة كالجراد ليسمعوا قصص الرعود
التي نطقت بجرائمهم وعقابهم.

ومن بين تلك الجموع من الرجال المقرفين، المتلفعين بالظلام
ظهرت مجموعة من المخلوقات البشعة يثنون بتوجع وحزن
وهم يتحركون بتصلب داخل النور المميز لهم .
وهناك وقفوا جماعة تتمايل وقد اكتست بالأقذار
يفطيهم غشاء مخاطي متعفن، من الرأس إلى القدم،
كالمشمع يلف أولئك المحكومين باللعة الأبدية.

ومن تلك المجموعة إنطلق نواحٌ مخنوق بصوت مشوّش، كالضجيج
المتواصل

من البحر اللانهائي، لعنة مروعة إلى الأبد.

هذه النبوءة تعمل حفّازة للأيام السبعة من الموسم المقدس: إنها
تخدم لفرض الإذعان قبل غضب وانتقام الإله الوشيك.

اليوم الرابع: الإعراف

عندما تصل هوميليا في البرد القارس إلى المستشفى، تلاحظ مجموعة من سيارات الجيش تحيط بالمدخل الرئيس ذي الأعمدة المحززة والطنف (الكورنيش). تشعر أن شخصيات هامة لا بد تزور مريضها، طالما يقف الجنود في حراسة كل سيارة، وجنديان لدى الباب. هذا الأمر سيصعب عليها وعلى كاريتا مهمتهما اليومية، أو يفرض تأجيلها هذا يزعجها. يبدو في عينيها أن العناية به ذات أهمية أولية، فهو على عتبة الموت، ويجب أن يحترموا أيامه الأخيرة. ولكن هؤلاء الزوار لا يظهرون اهتماماً لوضعه. سوى الإحترام اللازم لمقامه السابق. خلال الأشهر الثمانية في وظيفتها، كان على هوميليا أن تصفي إلى تكلف المديح من البعض، وتأبين متذلل من آخرين، وكراهية خبيثة من أعدائه المعروفين.

قبل أن تدخل من الباب الجانبي، تعرف أن اليوم سيكون يوماً صامتاً ومشؤوماً.

كان خمسة أشخاص يقفون حول سرير المريض. أجنبيان بثياب رسمية وثلاثة من العسكريين بكل نياشينهم. تذهب هوميليا إلى أجهزة المريض ويدها اللوحة. تسجل الأرقام ثم تعود إلى ركنها في طرف الغرفة، إذ لا تجرؤ أن تقم نفسها بين المريض وزواره.

لقد مضى عليه عدة أشهر في هذه الحالة. لا تغيير. يلبس المتكلم بذلة من قوة الطيران النيفاري بجاكيته الكحلي وسرواله الأزرق ذو الخطوط الذهبية، طويل نحيف بشعر وشارب يشوبه البياض، ويحمل طاقيته تحت ذراعه الأيسر. لقد بذلوا كل ما في وسعهم بما فيه الجراحة في الجمجمة ليسهلوا نرف الدم الفائض، بلا فائدة. إنه

كالميت ولكنه يحظى بكثير من الأتباع هيتوجب على الإدارة المحافظة على حياته. الصوت سلطوي ومباشر .

ولكن هل من المتوقع أن يصحو من غيبوبته؟ أود أن أرجع للبلاد ومعني تقرير وافٍ أقدمه للإمبراطور. هذه الكلمات بصوت سفير الولايات الإشتراكية المتحدة، رجل أنيق محترم، قصير القامة ممتلئ، أصلع الرأس، نطقها بتردد وبلهجة قلقة.

لا أحد يعرف. وإن صحا فمن يدري كيف تكون حالة دماغه؛ وهل سيكون له سيطرة على يديه وساقيه؟ بصراحة، البلد بحاجة لأن يستمر في حياته بعد الجنرال لقد مضى عهده؛ ونحن في مرحلة متقدمة وعلى الشعب أن يرضى بهذا.

أفهم موقفك سيدي. ولكن بلادي إستثمرت ثمناً باهظاً في هذا الرجل. فهو يمثل نيفاريا بنظر إمبراطورنا. لقد أعطي صلاحيات واسعة لإدارة الأمور كما يجب. لقد حظي بحمايتنا، ولو أن هناك الكثيرين عندنا ممن يدعون أنه سبب الكثير من الأذى الذي لحق ببلادنا. إن سياسة بلدكم ضد الإليوسيين تسبب الكراهية لنا. ولكننا لم نخبر شعبنا بأعماله، فالكل يتأملون أن يتحسن وضعه.

دعني أتدخل هنا سيدي السفير. قال موظف كان يرافق المريض لعدة سنوات في مناقشات حربه في شمال نيفاريا ضد بلدان مجاورة. مع هذا كان موضع سخرية من المريض الذي سماه سائق العربة لأنه أراد أن يحذر المدنيين من عمليات متوقعة، وهذا أثار استهزاء ديماس. لماذا لا يعرف شعبك أي نذل هذا الرجل؟ الأمر معروف في نيفاريا منذ 50 عاماً. حافظه السلطة، وأن يكون في القيادة. لا مبادئ لديه، مجرد مهمة بلا رحمة للعقاب بهدم البيوت وقتل مئات النساء

والأطفال والشيوخ في سبيل تقدمه. إنه يراوغ، يكذب، ويدين من يعاكسه.

لو انتشر تقريرك هذا في بلادي، لتوقف دعم نيفاريا حالاً وتوقف نفوذ(جمعية دعم نيفاريا في ولايات الإتحادالإشترافي).

إن جمعية دعم نيفاريا يديرها في بلادكم مجموعة من المتعصبين الذين موكوا مشاريع إجبار مُشرعيكم أن يدعنوا لطلباتهم. يا إلهي، إنهم يضعون تشريعكم. إنهم يمتلكونكم.

هذه ليست أخباراً جديدة لدي، سيدي. ولكن هم الذين صنعوا له هذا المركز في بلادنا، وجعلوا منه ملاكاً في نظر مجلس نوابنا. أن تحوله إلى شيطان لن يلاقي إستحساناً لدى الإمبراطور.

كان هذا الحوار يدور بين الشخصيات الأجنبية والعسكريين حول سرير المريض. تبكي هومياليا في زاويتها بصمت، وتعلم أن روح المريض تبكي مثلها من هذه الإتهامات الخبيثة، ولكنها لا تستطيع إيقافها.

أنا أكذب؟ ماذا تظنون أن علي عمله عندما يضع المجانين خططاً عسكرية فاشلة؟ طبعاً، فالأ، جنرال بالإسم فقط، أيها السخفاء. لماذا تهربون من القتل؟ إنها الحرب... أنا أقتل... أقتل نساءً وأطفالاً وقت اللزوم... الحاضر لا يهم، المستقبل هو المهم. وإذا سيطرنا على المستقبل بالقتل فليكن. أنا أكتب الأخبار، عليكم اللعنة، أنا أصنعها، أنا أبني نيفاريا بينما تجلسون على أقميتمكم وتبكون. أخرج من هنا أيها الجبان... إذا أزعجك قتل النساء والأطفال، إتخذ وظيفة مكتبية. لماذا تخاف مما يجب عمله؟

يندفع هذا الانفجار الصامت من جثمانه على معاونه، ويمعده إلى الورا، في رؤية متحدية قبل عدة سنوات. كان قد تلقى أوامر بإخلاء قرية وهدم منازلها. بعد أسبوع من هذه المعركة المزعومة، نشرت الصحف تقارير عن مدنيين وجدوا تحت أنقاض بيوتهم. أحضر المريض أمام هيئة من المراقبين ليشرح ما حدث. في حلمه يعيش ذلك اليوم.

الزناديق!... ماذا تريدون مني؟ لا وقت لدي للسخف، لأن ألعب دور الشرطي اللطيف لهذه الحشرات. هل علي أن أرافقهم خارج البلدة؟ أين أضعهم؟ من سيحرسهم؟ لا، أيتها الصقور الجبانة البلهاء... أنا في الحكم... وأنا سأجعل من هذه البلدة مثلاً ينتشر... لا يهمني ما سيعمله الرجال... يفتصبون النساء، يقطعونهن... يقتلون الأطفال والشيوخ. ينادون، هناك أحد في البيت؟ ثم يفجرون القبلة ولا ينتظرون جواباً. سأترأس مسيرة العربات التي تحمل الجثث المرصوسة فوق بعض كالخانزير المذبوحة، سيقانهم منفرجة ليرى الجميع ما عملنا بهم. من بلدة لأخرى سنري الزناديق مصير المقاومين. لتجري الدماء كالأنهار. ستصبح جالاريا كلها لنا... وسنخبر السياسيين ما يريدون سماعه. لقد أخليت البلدة... هذا كل ما سيعلمونه. كل هذا لأجل نيفاريا وأمنها... إنه مبرر... ولا يهم ما يظنون في الخارج. لن يتمكنوا من إيقافنا بعد أن نمثلك القرية. أنا أذفن قرى... أذفن الناس تحت أنقاض بيوتهم... وأطرده من يتبقى. هذا ما يجب عمله.

يسترجع عقله الماضي، يستعيد قراراته ويبرر أعماله وسخريته ممن عارضوه. لقد خض عقله هذه الأفكار مراراً وأعاد خضها في الأيام والليالي التالية. كنفق لا نهائي من الشهور المتعاقبة.

فالا، أيها الجبان، عندما كنت طالباً في الكلية العسكرية كنت أشجع منك الآن. يا إلهي القدير، لقد جعلوا مني مرشداً قبل سن 15. أين كنت؟ متى قدمت حياتك لنيفاريا. لقد فعلت ذلك قبل أن توجد نيفاريا، عندما كانت حلاً في رؤوس مؤسسيها. ولكن حتى حينئذٍ عرفت ما الذي يجب عمله. أية قسوة يجب أن تعامل بها الحشرات الزاحفة على أرضنا. يا إلهي، فالا، لقد كنت رائئاً حتى في تلك السن، كان يمكنني أن أنضم إلى فرقة من الإرهابيين الأوغاد لتخيف الإليوسيين ونظهرهم من بلدنا... نظهرهم؟ لقد طردناهم بالقوة المجردة. هذا ما تعنيه القوة، أيها الأبله.

لا تنازل. لا رحمة لأحد. لا شفقة على الأبرياء. لست بريئاً إذا كنت ضد نيفاريا. أذكر الليلة التي نسفنا فيها الفندق... ليس أي فندق، بل فندقاً كان يقيم حفلة زفاف حافلة بالمدعويين، فندقاً يمتلكه الأجنبي الذين حكموا بلادنا قبل أن نطردهم. كان هناك بعض النيفاريين ولكن لا يهم. إن ضخامة السخط، والجرأة اللازمة لتدمير مكان كهذا... هذا ما استحق عناوين بارزة في الجرائد. وهذا ما يغير الأمور. هل كنتُ أعرف من كان هناك؟ وهل همني ذلك؟ هل نزلت؟ يا للجحيم، واحد وتسعون شخصاً ماتوا بما فيهم العروس والعريس.

بعد سنوات، بعد قيام نيفاريا، ساعد في تحويل المكان من ذكرى مذبحه الأبرياء، إلى إعلان الإرهابيين كأبطال إستقلال نيفاريا. لقد فهم أن الحق يتبلور في نفاذ البصيرة وليس في الحقيقة.

لقد كان تدمير الفندق تعميدي. بعدها قتلوا إبني... آه يا إلهي ما أفضح ذلك... ذاك حدد شخصيتي. يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة فكرت في طرق معاقبتهم الإنتقام يقول الرب كانت الكراهية وراء كل

الأعمال. لقد سهّل الأمور عندما أصبحت رئيساً للحكومة. فقد خططت المحو التدريجي للإليوسيين... شيء يشعرونه، يعيشونه، يتألمون ويقتنون بسببه: هذا ما خططت، إذلالاً مراً، ممضاً ومهيناً في هزيمتهم. فرضت هدم البيوت، آفاقاً كل عام، وطرد الناس للشوارع وهم ينتحبون، عقاباً جماعياً متزايداً. استوليت على مصادر المياه وأعطيتها للحجاج، وتركت لهم النزر اليسير يتصارعون عليه. رأيت أولادهم واقفين لساعات في طوابير ليملأوا دلاءهم بالماء، بينما حجاجنا يلعبون في بركهم. وضعت قوانين لمصادرة أراضيهم، قطاعات ضخمة منها. ولم أضع لهم مقابل. كل ما كان علي عمله هو إقناع ذلك الإمبراطور السخيف أن النيفاريين ضحايا إرهاب فيسيطر على المنظمة العالمية. كم ضحكت: غريب كم أسعدني تلاعبي بالأمم المبرحة. وكنت أبتدع تعذيباً جديداً كسجن الألوف بدون سبب، وتحريم الزواج بين الإليوسيين والنيفاريين. لقد أصبح الأمر لعبة، كيف أوهم الجميع أنني أريد السلام، بينما هو آخر ما أريد.

الآن تقفون فوقى ولكني أعرفكم- فالأ، إشكا، وهارتسيا- كلكم جبناء. أنا أخطط وأدبر للأستيلاء على بلدات شمالي البلدة القديمة. ليس فقط قتل الأجسام بل قتل العقول... فالخوف يقتل كما لرصاص... أخرجوهم، ونظفوا البلدات منهم. أحيطوا بهم من ثلاث جهات وأخرجوهم من الرابعة: دعوهم يصبحون صرخة الإنذار للبلدة التالية والتي تليها. أقتلوا من لا يخرج. فأنتم لا تكسبون أرضاً إذا كان الناس يعيشون عليها إلا إذا كانوا من شعبكم. أطردهم أو أقبروهم.

متى سيفادرون؟ لماذا يقفون وعلى من يريدون أن يؤثروا؟ إنه لا يسمعهم. كأنهم يريدون توبيخه والسخرية منه. إنهم شريرون. هوميليا

تتالم لأجل مريضها بينما هو في صمته وراء أجفانه المغلقة، يعيش ذكريات إنجازاته، لحظاته في الثواب والعقاب والمجد .



قبل أشهر أحضر الجنرال ديماس إلى المستشفى من إحتفال أقيم بمناسبة بداية الحملة الإنتخابية لترشيحه لفترة رئاسة ثالثة غير مسبوقه كرئيس حكومة نيفاريا . إنهياره سبب فوضى في البلاد . لم يكن هناك من يقوم مقامه، إذ كان يحكم كدكتاتور وقد خطط السياسة لسته أعوام، تعطي البلاد قوة لا تضاهى في المنطقة، وينظر إليها بحسد وكراهية .

ظل مستقبل نيفاريا دون الجنرال غير واضح . ولكن عندما تبين أنه لن يسترد وعيه، تجرأ السياسيون . البعض شجبوا سياسته وآخرون دعموها . ولكن الشعب عرف أنه لا يوجد من يتمتع بشخصيته الساحرة، أو بالعلاقات التي زادت قوته .

هذه الحقيقة مهّدت لنشر العديد من التعليقات الصحفية حول حكمه مدى ستة أعوام، والنظام الذي كتّله بشكل فعال . أخاف انحيازه للمتدينين الأصوليين، العلمانيين، ولكنهم لم يتمتعوا بقوة كافية لمنعهم من الوصول إلى الحكم . نتيجة لذلك أصبحت الأساطيرا لقديمة عقيدة سياسية تدفع البلاد إلى حروب متواصلة، مما جعل من الضروري أن يتفوق الجيش على أي من جيرانه .

زناديق . تقفون على قبري، يا إلهي... كاني لست هنا... كاني تابوت حجري في معبد قديم . أنا حي عليكم اللعنة!... آه، كم أريد أن ألعن هؤلاء المتملقين الذين يتمرغون بالتراب تذلا للقوة ولا قوة لديهم .

عاجزون مقيدون بالقانون والشرثرة الفارغة. لا عجب أن يخفقوا.
إسمعومهم... إنهم يلعنونني. لا. أنا لا أطيع الأوامر.

ماذا يحدث عندما أصفي للسياسيين والرعاعيد؟ أترجع خوفاً مما
يجب عمله: أصبح مثلهم... لا قدر الله. أخشى أني لن أنسى. القيود
التي توقف العمل... تمنع النصر. تذكروا فقط ما الذي يجلب
النصر... لا حاجة أبداً للفران. ما رأيكم بهذه السخرية. أيها البلهاء
الذين تزحفون إلى قاعة الصلاة طلباً للفران؟ أنا اخترعت اليوم
المقدس الذي علمت... لا بل أعلم أنه خدعة، مزاح قاس. هل أعرف
ضرورة القتل في الحرب؟ هل يعرفها السياسيون؟ كلا. يحتاجون إلي.
نيفاريا تحتاج لي. الشفقة لا مكان لها في الحرب... فقط القساة
ينجون. الكراهية. على المرء أن يكره.

بينما يلعن أصدقاءه السابقين من داخل سجنه، يدرك كيف حاول
أن يخفي عن رؤسائه ما حدث في مخيم اللاجئين قبل سنوات. ولكن
المصحفين وصلوا هناك قبل أن يفلق المنطقة، ونشروا تقارير عن
التعذيب، والإغتصاب والذبح. وصفوا الجثث المتراكمة كالديدان على
أكوام النفايات، وأفراد الجيش الواقفين خارج البوابات وعلى أسطح
البيوت، يشاهدون بالمناظير المكبرة مرتزقة النفايريين يحطمون
البوابات وينتشرون في الأزقة الضيقة، حيث يتوقف كل إثنين أو ثلاثة
منهم على كل مدخل للمباني الإسمنتية، يقتحمون البيوت، ويندفعون
داخلها، فيرتفع الصراخ المريع، و ينتزعون السكان، يعرون النساء
والبنات، يدفعونهن إلى الجدران ويمبثون بهن ويفتصبونهن، ثم
يذبحونهن بالمدى، ويلقونهن على الحجارة، والدماء تسيل من الحناجر
والبطون، ويختلط الصراخ بعويل العجز والخوف.

بعد أيام صدرت التقارير المفصلة نتيجة لهيجان الشعب الذي فتح بوابات المخيم، ودخول الصحفيين الذين هالهم منظر البنات العرايا، السيقان مفتوحة، والعيون الناضحة بالخوف متجمدة. طفلة مذبوحة وقد تجمد الدم على عنقها الصغير، أكوام من الرجال القتلى وقد اطلق الرصاص على ظهورهم، أطفال مسودون من حرارة الشمس يغطيهم الذباب، والرائحة النتنة من الجثث المتحللة تغمر الجو. طفلة نصف رأسها ملقاة بجانب جثة أمها التي فتح بطنها، وبرزت عيناها من الرعب، وابنها قطعت أعضاؤه، وتكوم عليها الذباب ...

ولكن المريض لم يندم أبداً ولم يعترف بمسؤوليته عن المذبحة. أنكر العدوان واتهم الصحفيين بالمبالغة واستغلال مذبحة مخيم اللاجئين سياسياً. بعد هذا البوح يفرق في نوم عميق.



أحمد لله يا كاريتا، لقد ذهبوا. لقد بقوا ساعة، يتمتمون، يصيحون، ولكن يلعنونه دائماً. ظننت أنه كان بطلهم، قائدهم، ولكنهم يكرهونه. كيف وصل إلى السلطة طالما يكرهه الجميع؟ لا أفهم. السفير، الرجل بالبذلة الكحلية من الولايات الإشتراكية المتحدة، بدا مستغرباً. كان هو سبب قدومهم. يعرف الجنرالات أنه في غيبوبة لن يصحو منها، ولكن لم يبد على ذلك الرجل معرفة ذلك. ما أغرب رد فعله.

لقد دخلت بعد أن بدأوا الكلام: بدا لي أن الجنرالات أرادوا التأكد من أن السفير يعرف الآن أنهم هم الحاكمون وليس المريض. وما عليهم الآن إلا دفته.

أحد الجنرالات قال إن المريض هدم بيوتاً للإليوسيين. وحرث مزروعاتنا، كما قتل نساءً وأطفالاً. لم أسمع ذلك من قبل. عرفت أن الجيش النيفاري عمل ذلك ولكني لم أعلم أنه المسؤول. جدتي تقول إنه مسؤول، ولكني ظننت أنها قصدت أنه أدار شؤون نيفاريا وليس تنفيذ الهدم. لعلمهم فقط يلومونه على ما يفعلون.

أخبرتني مرة عن أبيك. لقد ضربه الـ (ق. إن.). أليس كذلك؟

آجل، كنت في الثانية عشرة عندما حصل ذلك. كنا نعيش في جويبا، شمالاً. وكان هذا قبل الجدار. أهل البلد عرفوا ما سيحصل فساروا بمظاهرات احتجاج. لم يفهم أحد لماذا يبنون جدار سجن حول القرية ويقطعون طريق السكان عن حقولهم وأصدقائهم. حتى بعض النفاريين شاركوا أهل البلد في المظاهرة.

ولكن طالما كانت المظاهرة سلمية وباشترك نيفاريين، لماذا أذوا أباك؟

بعد الحادث بسنوات أخبرني أبي لماذا. لقد ساعد في تنظيم المظاهرة. رأيتهم عندما أتوا باكراً إلى البيت، وجروا أبي خارجاً. كان هناك آخرون مربوطون وراء سياج الجيران. لقد ضربوهم جميعاً، وكما علمت لاحقاً كان ذلك درساً كي لا يعارضوا (ق. إن.). أصبح من المستحيل على أبي وغيره أن ينظموا مظاهرات. خرجت أمي بعد مغادرتهم وحملت أبي مع جارنا إلى البيت، كانت ركبته مكسورتين وتزفان بالدماء، ووجهه يتلوى بالألم، وهو يبكي شعرت بالفغيان.

هل كان مريضنا هناك؟

لا أعلم، كانوا جميعاً يضعون أقنعة سوداء. لا أذكر وجوهاً. كنت صغيرة.

آه يا ملاكي، لو علمت... لو علمت. لماذا تذكرين هذا الآن؟ أنا أقشعر من قصتك. أسمعك تبكين، وأشعر بالملك، يا ملاكي هومياليا. لم أعرفك حينئذٍ قبل سنوات... لقد كانوا صراصير من السرب المتجمع في الطريق الترابية حول جويبا. كل من يمرض أو امري يتعذب، كل من يتحداني يتعذب لقتل إبني. ولكن الآن، أسمعك تبكين على والدك، الوالد الذي أقعدته ..

أسمعك تبكين في داخلك. لا أريدك أن تبكي... إبني أقر أنني لا أريد أن أسمع الحزن في صوتك. أريد النبرات الهادئة التي تخاطبيني بها كلما دخلت الغرفة... أأصوت الناعم الحنون الذي يخاطب رجلاً ميتاً، رجلاً لا تعرفين حتى أنه يسمع ما تقولين. كم أشتاق لسماع صوتك... بدون صوتك أنا لست حياً... يحيط الصمت روعي ببشاعة فراغ لا يحتمل. يا إلهي، أنا ممدد هنا في عالم أسود، حي ولكني وحيد. الساكن الوحيد في هذا الفراغ الصامت، بلا عزاء وبلا لمسة أستطيع إحساسها من إنسان آخر... منعزل، مغترب عن كل ذرات الوجود ماعدا غضب ذكرياتي التي تلاحقني في الظلام كشبح شرير يعيد الحياة لما عملته في حياتي... ولا يتغير... لا أبرره سوى لنفسي السجينة في هذه الجمجمة التي تصرخ طلباً للتحرر، ولكن لا إنطلاق. فقط الصدى اللعين لأفكاري يرتد داخل دماغِي... كرصاصات من بنادق فرقة تفنذ حكم الإعدام.

آه يا هومياليتي، ليت الأمور غير ذلك. أتمنى لو أستطيع كرهك كما كنت عندما علمت للمرة الأولى من أنت. أن تعسني بي إحدى الإليوسيين دفعني للجنون. لقد انخضت الكلمة في معدتي كالأسيد. كنتم شريرين، أردتم موتي كأي نيفاري؛ إبني، يا للعة! اجتذرتك في كل لحظة سوداء، ولم أعرف عنك شيئاً، ولكن الإنتقام لا يعقل.

تسيطر الكراهية. وهكذا أستلقي وأفكر. أفكر بك، واتساءل عنك، لماذا تقومين بهذه المهمة. يا لسخرية السخریات، فانت لا تعرفين شيئاً من أفكاری. ماذا لو...

يتذكر المريض حوادث من السنة الأولى لحكمه، قبل أن يبدأ ببناء الجدار لسجن الإليوسيين بعامین. ولكن بعض الإليوسيين فهموا غايته وبدأوا حملة لإيقاف البناء. بعض البلدات والقرى نظموا مظاهرات سلمية ليلفتوا الأنظار إلى نتائج بناء السور. بادر الجنرال حالاً لإيقاف هذا الإحتجاج قبل أن ينتشر وتصل أخباره إلى العالم الخارجي. ذهب إلى جویا ليجعلها رمزاً لقسوة نظامه وعدم تحمله أي إعتراض على السور. لا شيء سيوقف بناء السور، حتى ولا المحكمة العالیه أو المنظمة العالیه اللتان أعلنتا رفضاً رسمياً. ولكن ولايات الإتحاد الإشتراکی (USC) وإمبراطورها سيطروا على القرار الذي ستصدره المنظمة العالیه (WO) ولم يحدث شيء ليمنع الجنرال من بناء حائط الدفن الإسمنتي حول الإليوسيين.

غادرت هومیلیا جویا في سن 17 لتدرس التمريض في المستشفى. كان السور قد بُني. تسلل خلال البلدة ماراً بين البيوت وحظائر الحيوانات، قاطعاً حقول الذرة وبساتین الزيتون عن بيوت الفلاحین، بحيث تصعب عليهم العناية بها. بوابة واحدة فقط أمّنت وصولهم لأراضيهم، وكانت تفتح حسب إرادة ال- (ق.أ.ن.). لم يتمكن المزارعون من المرور بتراکتوراتهم وعرباتهم من السياج، فأصبح المحصول يُحمل على اکتاف وظهور الفلاحین لمسافة ميلین. وأقيمت مستوطنات الحجاج النفارین على أرض الإليوسيين الزراعية. سمح السور بتوسع المستوطنات إذ ضم مئات الدونمات للنفارین، وأصبحت كل الأرض المسيجة مصادرة لصالحهم.

كان سفير الإتحاد فخامة جانوس بنديروس الذي حضر لقاء الصباح، صديقاً شخصياً للإمبراطور فيولنتوس. نشأ الإثنان معاً، وذهبا لنفس الجامعة، واشتركا في نفس المجتمع السري، ولعبا معاً في الأندية الفخمة بانسجام تام في حياتهما المرفهة. وكالإمبراطور أصبح مع تزايد السنين، ذا كرش، لطيفاً ومنغمساً في الملذات. كان تعيينه سفيراً كتبويج لإخلاصه التام للإمبراطور، ولهذا يتصرف فقط بما يرضي الإمبراطور.

عمل مدى ستة أعوام لحماية نضاريا من تدخل ال- UCS والصحافة في سياسة نيفاريا ضد الإليوسيين. كذلك عمل المريض جداً ليحيط السفير بجوائز الدولة وحفلاتها المترفة وكل التجهيزات التي ضمنت ولاءه لسياسة المريض. كان رد فعله لملاحظات الجنرال فالما أكد إنغماسه التام في الملذات التي تحيط بمركزه الراقى كسفير ال- UCS في نيفاريا. لمدى ست سنوات كان يمدح الجنرال ميداس أمام الإمبراطور لدرجة أن الإمبراطور مجّده في حفلة رسمية كرجل سلام.

آه، هوميليا، يبدو أنني انجرفت بعيداً... لا أقدر أن أسيطر على مدى يقظة وعيي. هذه ليست حياتي لأسيطر عليها... أنزلق في قاع محيط ذي تيارات صامتة وبحر أسود... غير مرئي... وعاجز عن الرؤية... كروح تائهة ترتفع وتهبط في إيقاع صامت غير محدود بزمان... كبنديل يتأرجح يميناً وشمالاً بلا توقف. كم أود لو أصبح، أنفجر عبر هذه الأفكار المشلولة التي لا يسمعها سواي، أن أزعج حاجزاً وأعترف لأي كان... ولو لأقول فقط، أنا هنا.

ما أشنع أن أحبو بتذلل أمام ذلك التافه الذي يحبو بدوره أمام المهرج فيولنتوس. ولكن كم كان ذلك ضرورياً لغاياتي. أرضيه وهكذا

اهدئ نصيري... آه لو أنه عرف أو إهتم بما أعمله. ولكنه أحق محاط بمشوهين... لعبت به كالزمزم. ولماذا أهتم؟

اتصلت به لأخبره أن علي أن أغير الخطط... المقاومة شديدة ضد الفارين: يجب تأخير السفر إلى مدينة الإتحاد. مكر وغش. سمه ما شئت ولكني احتجت لضمان وقع الهجوم القادم... طبعاً، كنت أعرف فظاعة الوحشية المنتظرة... ولكني لم أخبره. بعدئذ وضعت يدي على كتفه وأخبرته أننا كنا ضحايا في هذه الحرب. علينا أن نجمع شعبنا تحت مظلة واحدة... وتبرعت بالمساعدة في التحري للقبض على المجرمين. آه كم أحبني. أصبحنا إخواناً في معركة ضد عدو مجهول. تقبل أساليبي... إعرف هوية المقاومين والذين يساعدونهم... إتهمهم بالجرائم... هاجم واقتل. أنا القانون وعليه أن يصبح القانون. إنه واجبنا وحقنا. إنه يحمي شعبنا... ولدينا الوسائل لفرض إرادتنا. مدحني، وسفيره الدليل لعق حدائي. هذه الأفكار الآن في هذا الكهف المظلم من عقلي حيث لا أرى نوراً، لا شمس ولا حتى ومضة أو كسرة من ظل... هل عشت حياة كاملة... مدفوعاً بالكراهية لكل من يعاكسني. مدفوعاً لأرغم الآخرين أن يحيوني، يرجوني، ويتملقوني... أنانية تشتهي التشفي والسخرية بخنوعهم. والآن وأنا ملقى هنا وحيداً... ماذا ربحت؟ أين أنايتي الآن وأين كراهيتي؟ أي باب سيفتحة الموت؟ أي مصير ينتظرني؟

ينزلق المريض في عالمه المظلم اليأس بينما يلف المساء النوافذ ويجعلها كالمرايا تعكس منظر المرض داخل غرفته. كانت الساعات الأخيرة من اليوم الرابع في الموسم المقدس تقترب من نهايتها. غير أنه لم يكن واعياً لمرورها فيما عدا حضور الحجاج لزيارته في اليوم الثالث، ولكنه لا يشعر بمرور الأيام والساعات، فقط تلميحات من

حديث عابر، تلميحات تضيع في سواد غيبوبته، تُبعث للحياة عندما يستيقظ أو تتبخر في ضباب الزمن الضائع.

يتجمع الحجاج لمسيرة الإعراف إلى قاعة التجمع في شارع بيوكريسز. غيوم كثيفة تتجمع في السماء، وتتشرب ضباباً خفيفاً يغطي المسيرة البطيئة. تصاحب النشيد الحزين قرعات طبول إيقاعية خافتة.

أسمع أصوات الدينونة تقرع:

أسمع غناء المؤمنين.

أرى الخاطئين يتجمعون أمام العرش،

يكسو وجوههم الخوف من مصيرهم المجهول.

حجاب كثيف من الخجل يهبط على هذا المكان،

لأن الذين لا يندمون يفرهم الخزي.

يتمايل الحجاج بحركة جماعية إلى الأمام والوراء أثناء مسيرتهم، رؤوسهم تهتز وقبضاتهم مضمومة يضربون بها صدورهم، ومعاطفهم السود تتحرك بنفس الإيقاع وكأنهم أصبحوا في ألمهم جسداً واحداً إذ يعلنون ذنوبهم لخالقهم. وإذا يدخل الموكب من أبواب قاعة الرب المزخرفة يبدو وكأن تتيماً من القرون الوسطى إبتلعهم وارتفع في ظلام الليل. نفخ البوق مع الغناء الحزين يمزق السكون، وكان رنينه يصل المريض موقظاً إياه من غيبوبته.

ذاك الصوت، ذاك الصراخ الباكي، كصوت طائر وحيد على شاطئ مهجور... إنه يعلن نهاية اليوم الرابع، يوم الإعتراف. أعرف الغاية منه... ما الوقت الآن، أنا الذي أوجد هذا الوقت، هذا الموسم للتوبة والعقاب. أية سخرية في أن يقرع مخترباً هذه الجدران التي تضميني، كأنها اللحم الذي يلف الأفكار.

بماذا أعترف؟ هل أتحمّل أخطاء هؤلاء الحجاج، وهل يحملون خطأي؟ ما هي الخطيئة إذا كانت أعمالهم حصيلة وجودهم هنا وأنا الذي أحضرتهم ولولا ذلك ما اقترفوها؟ هل الأحداث السياسية سبب الخطيئة؟ من يهتم؟ من يحاسب؟ أنا جعلت كتاب الدينونة لثورتانا الذي سيحاكمهم أساس هذا الموسم. إذن هل إلهي هو إله الدينونة؟ ما أسخف أن تتحول المعتقدات إلى لب الحقيقة إذا ما كانت المعتقدات باطلّة!... لا، أرفض أن أحمل إثمهم. لن أعترف لأسهل لهم التراجع من الثواب والعقاب... ليتحملوا هم عقابهم: يعلم الله أنهم يستحقونه. لست مؤمناً، فما الذي يخيفني حتى لو شاركتهم في أعمالهم؟

ينزلق المريض ثانية إلى عالمه السفلي لأحلامه والرؤى التي تحركها ذكريات الأيام السابقة عندما شارك فعلاً بهجمات (ق. إن) على قرى الإليوسيين. إنه يذكر الإستجاب الذي وصف أكثر الأحداث إنتشاراً، الذي اضطر أن يخمده ورد فعله الذي سجله في ملاحظاته: يا للحمقى ليمية تصبح شهيدة، جريحة هي رادة.

وصف التقرير بتفاصيل موجعة جداً حادثة سائق الجرافة الذي قادها ببطء باتجاه البنت التي حملت البوق وطلبت منه التوقف عن هدم البيوت، ولكنه رفض. كان يطيع أوامره بغض النظر عن النتائج.

رفع نصل الجرافة فوق التراب وهو يتقدم بحيث لا يرى الفتاة واندفعت الجرافة فوق كومة التراب وقصته. وعندما ظهرت الفتاة كانت ذراعها منفرجتان وقد طار البوق من يدها، ثم اختفت ثانية عندما تقدمت الجرافة في المنحدر. توقف السائق ثم تراجع إلى الخلف جاراً جسدها تحت نصل الجرافة ورفعها ملقياً إياها على التراب قرب رفاقها الذين اندفعوا إليها صائحين.

لماذا أفكر بهذه الأمور؟ ... أذكر... إنه يوم الإعتراف، نهاية يوم الإعتراف... صوت البوق إنطلق من المضحك أن أعرف اليوم ... حسناً، ليس تماماً، إنما هو يوم خريفي في أواخر الموسم المقدس. لا أعرف الدورة القمرية، ولكن لا بد أنه قريب من نهاية العام. إنما هذه هي المرة الأولى التي تجعل وجودي مرتبطاً مع الآخرين. هل هذا سبب بحثي في ذاكرتي؟ أنا أعترف؟ ما أغرب هذه الفكرة عني أنا الذي لم أذنب أعمالاً التي سببتها طبيعتي السلطوية قط. لا شعور بالذنب، تقع الأخطاء، ولكنها لا تغير الطبيعة... كما أن الندم هو شعور اخترعه انسان خلق ليسيطر، وسيلة نافعة عندما يحسن إستعمالها في شعائر الأسرار المقدسة. أنا خططت الموسم المقدس تماماً لهذا السبب. فما معنى الإعتراف للإله الذي خلق الخطايا والندم؟ يجب أن أضحك ولكن ما الضحك إن لم يسمعه أحد؟ وما الدموع إذا لم يرها أحد؟ وما الفكر إذا لم يشعر بوجوده أحد؟

ما أغرب دورة الأحداث... أن تتكلم يوماً وتعرف أن العالم يصفي، ثم تفكر ولا يهتم في الدنيا أحد. معلق أنا في هذا الموت المؤجل برشاقة كالعنكبوت، بين اللاشيء الأبدي وإدراك ذلك، ولكن العنكبوت يشعر بالريح التي تزعج كيانه وأنا لا أقدر. أبحث عبثاً في الخروج من

الحاضر وأرتجف للتفكير أني سأنتهي. الغد... هل سأعرف الغد...
هل سيأتي يوم الكفارة، وهل سأعرفه عندما يأتي... هل الإدراك
والعذاب سيكونان كفارتي... يليهما الغفران، أم أني لن أنال غفراناً،
وسيكون قدرتي العذاب اللانهائي بواسطة الذكريات؟ أي عقل
شيطاني يمكن أن يفكر في ...

اليوم الخامس: الكفارة

تلبدت غيوم قاتمة مشؤومة في سماء دسبيريا في صباح يوم الكفارة، وانطلقت ضربات الطبول الخافتة الكثيبة تدعو الخاطئين إلى قاعة التجمع حيث سيصلون جميعاً طلباً للفقران. واصطففت الجموع في الشوارع ليشاهدوا المنظر الأليم وقد لبسوا ثيابهم داكنة السواد، وحملوا مظلات تقيهم من رذاذ المطر المتساقط. واندمج الحجاج المتوافدون من الشوارع الجانبية إلى شارع بيوكريسز واتجهوا غرباً إلى قاعة الصلاة وهم يضربون طبولهم الصغيرة بعضا مبطنة منسجمين مع اللحن السائد. يرتفع الصوت الحزين مع تزايد المتجمهرين المتجهين ببطء نحو الغرب، ترنيمة كثيبة تلف المدينة. تتدلى أعلام سوداء ذات دوائر ذهبية كلب من أعمدة النور على امتداد شارع بيوكريسز. ويحركها الهواء بإنسجام مع اللحن الحزين تصل هوميليا وكاريتا إلى طرف شارع بيوكريسز مع مرور حشد الحجاج. يصددها صدق التائبين وقد بلل المطر معاطفهم وأغطية رؤوسهم فالتمعت تحت أنوار الشارع الصباحية، وتمايلت أجسامهم بإنسجام نحو المعبد، قوة مترججة تبدو في الضباب الغائم كأفعى سوداء تنزلق. يهز المنظر هوميليا فتلفتت إلى كاريتا التي تلاحظ الحزن في عينيها. ليلة أمس أجلسني جدتي إلى جانبها قرب طاولة المطبخ. قالت لي إنها ستخبرني شيئاً يفسر بكاءها قبل أيام. فتحت علبة كانت على الطاولة وأخرجت منها قصاصات من الجرائد، وشرحت لي ما رأت عندما دخل ذلك الحاج قبل سنوات إلى المسجد قرب بيتها. كانت في قسم النساء عندما دخل. كان أمامها وكان يحمل معطفه على ذراعه الأيسر. ما رآته لازمها حتى اليوم. دخل قاعة الصلاة، خلع حذاه ودخل بهدوء لناحية اليمين ووقف بجانب الحائط

يراقب المصلين وهم راكعون، رجالاً وأولاداً في ثياب ملونة- أحمر، أصفر، أزرق، أخضر، بني- كلهم على سجادة الصلاة. ثم ترك معطفه ينزلق ورفع بندقيته.... وانفجر صوت مخيف لم تسمع مثله في حياتها... تجاوبت أصداؤه بين الجدران والقبة، وهو يفرغ كراهيته على ظهور ورؤوس المصلين الغافلين. إرتفع ضجيج من فوضى الأجسام المتلوية والدماء المنتشرة وصراخ الألم. سمعته ينادي إسم إلهه عندما ألقاه المصلون أرضاً. أخرجت جدتي الأوراق من العلبة، وقالت إنه مات وهو يؤمن أنه حقق رغبة الله. ضممتها إلى صدري وهي تشهق بالبكاء لذكرى ذلك المنظر.

وصلتا إلى المشفى وهما تأملان أن يسامحهما المراقب على التأخير. تعلمان أن تأخيرهما على أيدي جنود التفتيش المذل، لن يقبل كعذر ولوأنها الحقيقة، لعل الجنود يسأمون من أيام منع التجول العشرة ويفرغون إحباطهم على الإليوسيين. ولكن الجنود يتلذذون وهم يجعلون الشابات يخلعن مناديلهن ومعاطفنهن تحت زخات المطر، ويتمتعون برؤية الفتيات يللمن أكياس الورق التي تتمزق من البلل ويسقط طعامهن على الطريق الموحل. أما اليوم فقد أمروا ولداً أن يلعب لهم على شبابته تحت المطر، وهم يضحكون على صرير الأوتار المبللة.

عندما تصلان غرفة المريض، كان صوت الطبول الخافت مسموعاً. تتساءل هوميليا إن كان المريض يسمعها، وفعلاً تسأل الجسد الهامد، هل تسمع صوت الطبول التي تدعو الحجاج إلى الصلاة؟ رأيناها يسيرون باتجاه المعبد ونحن في الطريق هذا الصباح. اضطرننا لذلك فطريقنا الإعتيادية كانت مغلقة.

هوميليا، أتاديبها كاريتا، لماذا تتحدثين إليه؟ إنه لا يسمعك.

لا، يا كاريتا، أعتقد أنه يسمع. لا أعرف بالتأكيد ولكني أظن أن
الله لا يتركه يتفلسف طيلة هذه الأشهر دون الإحساس بخليقته. وبهذا
التعبير البريء تبدأ بفناء هاديء لإحدى الترانيم من كتابها.

سأمدح كل مخلوقات الأرض:

من أعماق قلبي:

سأتكلم عن أعمالكم الرائعة،

سأفرح وأسعد معك

وأثقني بحمدك أمام كل الشعوب.

لن يكون لي أعداء بين الناس:

لن يتعثروا أو يهلك أحد أمامي.

لن أقاضي أو يقاضيني أحد

ولن يكون لي رب يحاسب

ويوبخ أو يدمر شعوب الأرض

ويحرمهم الحياة

ليمجدني فوق الجميع.

أسمعك يا ملاكي، أسمع لحن أغنيتك الحلو. ما أطفك إذ تغنين
للأموات... ولكن من تغنين نفسك لتعطيني، بحق الإله وأنت مجرد
خادمة؟ هذا سخف. كيف سأتحمل هذا؟ كيف أخرجك من تفكيرتي،
كيف أعود لما كنت عليه وأبعث الكره في قلبي لكم جميعاً وأنت
الإنسانة الوحيدة التي تعطيني الحياة، وتجعلني أشعر أن هناك من
يعرف أنني حي. وأن هناك من يفني لرجل ميت. أتمنى لو أستطيع
رؤيتك فأعرف وجهك كما أعرف صوتك. وأدعك تعرفين مشاعري.

ولكن هذا لن يعود... هذا الإله الذي تتوجهين إليه يسخر مني... ماذا إذن غير ذلك... أنا أفكر فهل أنا لست موجوداً؟ نعم أنا أفكر. أفكر، ولا عمل لدي سوى التفكير... والآن يا ملاكي، أنت تطرحين هذه الكفارة أمامي... ألا يكون لي أعداء بين الشعوب. ولكن يا هوميليتي، ليس لدي سوى أعداء منتشرين في العالم. أنا أعمل عكس أغنيتك... أنا أكره الإليوسيين وأحتقر الضعفاء الذين يرجونني كي أمنع الجرافات من هدم بيوتهم؛ أنا أدنت وأعدمت عماركم، الذي تجرأ وقاومني، بتوجيه صاروخ إلى شارع مزدحم قتلته والواقفين حوله. أنا أرسل جيوشاً لتدمر جيران نيفاريا متذرعاً بأسباب واهية ومدعياً أننا الضحية. أنا الإله الذي ترفضين. أنا خلقت عالمي ليمجدني، وفي هذه الحالة نبذت كل ما تجدينه فاضلاً. ولكن يا بريثتي، ما أنت إلا ضحية تعاليم قديمة، تخدعك كحجاجي الذين يقضون هذه الأيام السبعة في الذكريات والعذاب، يبحثون في إيمانهم عما يمحوا أخطاهم. بالنسبة لهم يا هوميليا، إنه تكفير أنا خطئته. لم تحتج كتابة كلمات الله إلى ذكاء عميق. إنه موسمي المقدس... خُطط لي جعل النصارين غافلين عن الشعور بالذنب، إذ أن غضب الله لن يقع عليهم طالما يطهرون أنفسهم في ماء الغفران. ألا ترين ذلك... لقد عشته، وتعذبت عائلتك به، لقد حرمت بلدتك من المياه والسهول... فرجالي يستطيعون أن يبطشوا ويفرضوا أية عقوبة وإهانة طالما هناك غفران لذنوبهم. أن تكون نصارياً يعني أن تكون بلا شعور بالذنب مثلي أنا. فقد عشنا سنين طويلة منبوذين وضحايا تحت نعال من قهرونا. ألا ترين أنني أستعمل الخوف من الغربة، ذلك الألم الذي ينتزع الجرأة من قلوب الضحايا، بحيث ينفي شعور الرحمة للآخرين.

أنا أفهم عقل النصارين، فهو عقلي، لذا أعرف كيف أكيفه... أن تخاف، أن يمتلكك شعور الخوف على الحياة يدفعك لدفن وإنكار

القيم والأخلاق المفروسة فينا... إن القيم الوحيدة المسموح بها هي تلك التي تؤمن مستقبل نيفاريا. لقد جعلت من هذه الفكرة القوة الدافعة في نيفاريا، فقط نحن نقرر ما هو الصواب: لن يملينا علينا العالم الخارجي أو امره بعد اليوم.

هذا ليس عالمك يا هوميليا، هذا عالم مجرد من الرحمة، أرض قاحلة حيث يعيش من تحجرت قلوبهم في نعيم مفصول عن الباكين في الشوارع. الظلام في العالم ليس لغزاً ينبع من الغابات وشرور الأفاعي، إنه أنا، عقلي... عقلي الذي يعطي معنى للظلم الذي أفرضه على الأبرياء. نحن لا نتطور بالحكمة يا ملاكي، نحن نتقدم فقط في براعتنا ومقدرتنا على القتل. أه غني، غني ترانيمك عن العطف والمسامحة، ولكن! عرفني سبب تجولكم بين الصخور والرمال، أرض يملؤها حطام الأدميين والنفايات، إنه ليس من غفران الذنوب وإنما من نهبي لمياهكم وأراضيتكم، من تدمير بيوتكم وسرقة أعمالكم وإرهاقي وإذلالتي المتواصل لكم... هل فهمت؟

لماذا يا هوميليا أتجواب هكذا لصوتك؟ أنا لا أعرف حتى من أنت، ولكن صوتك الحلو يأسرني وأغانيك لي ترفع معنوياتي. لم أفكر أبداً بك، وبأي منكم، ولم أتساءل لم تقبلون القليل ومع هذا تبدون ممثلين بالحب. لم أشعر أبداً بقربي من أحد، حتى ولا من زوجاتي وأطفالي... إسمعوا! إنها تغني ثانية، لا إنهما تغنيان معاً بكل نغومة...

سوف تلحق بإخوتك وأخواتك،

بالحب ستلحق بهم،

لأنك ستعلم أن الحياة قصيرة،

والأمراء وكل السلاطين، كالناس،

لديكم لحظة واحدة من الزمن
لتعبدوا بعضكم، وأنتم ترتجفون
قبل نهاية الوجود.

أنظري كاريتا، تشعيرين ونحن نفني أنه يسمعا، اليس
كذلك؟ صوتها قلق ومتحمس إذ تنظر إلى كاريتا بامعان وعيناها
البنيتان ترجوان الموافقة.

أوه، لا أعلم، هوميليا. أرجو ذلك. ما أفضح أن تستلقي هنا يوماً تلو
الأخر بلا زوار، ولا حتى زوجته ولكن إن كان يسمع، فماذا يفكر؟ هل
يتكلم فقط لنفسه؟

يدهش سؤال كاريتا هوميليا ولكنها لا تجيب.

آه أيتها الملاك اللطيفتان، ترانيمكما هي غناء الضعفاء
والشحادين والبدو الذين يهيمنون في الأرض، أولئك الذين يعيشون
على الأحلام، إذ ليس لديهم سواها. إنهم يغنون نفس المقاطع التي
كان يغنيها النيفاريون قبل أن يصبح لهم وطن، عندما جابوا في بلدان
غريبة وشاهدوا عذاب الآخرين، وأدانوا الظلم والقسوة ليضمنوا
سلامتهم في بلاد الغربة... هم أيضاً توحدوا مع الجميع ... فعلى
العاجزين في الدنيا أن يجدوا الراحة في مكان ما. ولكن هذه المشاعر
الساذجة لا توجد لدى الوحوش، لا... لا... مصلحة الذات هي الدافع
لشهواتنا، وليس الرحمة. الرحمة ضعف... وأنا أحتقر الضعف... فما
الذي يخدعني بكم؟ أنتم لا تعرفان شيئاً عني، لو عرفتما
لكرهمايني. ولكن أكنتما تكرهاني؟

أي سطر كان ذلك أن تعبدوا بعضكم وأنتم ترتجفون/ قبل نهاية
الوجود. كيف يعبد إنسان الآخر؟ لم أكن قريباً لأحد مدى خمسين

عاماً بحيث أعبدته. أي سخرت. دائماً. دائماً أحارب الناس... تقرع
لزوجتي. توبيخ أولادي. أجادل وأشتم الموظفين والسياسيين... دائماً
أهرب من شخص لآخر، أكذب لأتهرب، لأدافع عن أعمال التحدي
لرؤسائي. لماذا أعبد أياً منهم؟ ما الذي سأربحه؟

القوة تُعبد وليس الناس. لم يعبدني أحد. حتى لم يحترموني
لإهتمامي بهم وعطفي عليهم. لا، كلهم إنحنوا خداعاً لأنني أستطيع
التغلب عليهم. مع هذا تأتون كل يوم، وتحذثوني. لا خوف لديكم؟
مجرد تأدية واجبكم. وإلا فلم تحذثوني؟ كيف يستطيع شخص بسيط
أن يزعجني هكذا؟... القوة تجعل الرعاية والرحمة للآخرين أمر
مهم. الرعاية والرحمة. يا الله. القوة عديمة الحس: القوة لا ترى
الرحمة: إنها تكافئ نفسها وتلقي بالقدسين والصالحين في صندوق
القمامة. لا يمكنني أن أتواصل مع الذين أحكمهم، ولا أراهم
يساوونني قيمة. لا يمكن أن أدع النصارى يعتقدون هذه الأفكار...
مهلاً إنهما تغنيان ثانية...

يا أصدقائي، تعلمنا من ماضيها.

الدمار يولد دماراً

حطام وخراب على أطفالنا

وأطفال أطفالنا.

ما كان لن يعود!

((العين بالعين، والسن بالسن))

طريق الفناء لمن يدمرون

والذين يوقعون الدمار بالآخرين.

يجب أن نعطي هذه الترنيمة للحجاج يا هوميليا، فلربما يكفرون عن ذنوبهم إذا انتبهوا لها. تبسم كاريتا وهي تتكلم وتلكز هوميليا.

انتظري إلى الغد، يوم الغفران. سيخرج الجميع إلى الطرقات وهم بيتسمون ويقفزون مرحاً، لن يتجه أحد ليوم العقاب والثواب. رأيت هذا سابقاً. إنهم لا يفكرون مثلنا يا كاريتا، إنهم لا يختلطون بأحد ولا يريدون ذلك كما يبدو. لا أفهمهم. يظنون أنهم وحدهم يتعذبون وهذا يضع حاجزاً بينهم وبين الآخرين. يعتري صوت هوميليا حزن هادئ.

في كلماتك شيء من الصدق يا هوميليا. أنا أرتجف من الذهاب هناك. لم أفكر يوماً أن يكون لدي الوقت أو الرغبة... الآن عندي وقت ولكن لا رغبة.

قضيت حياتي كلها أحارب الإليوسيين ومن يساندونهم، وهذا تطلب مني أن أمحوهم من وعيي، أقضي عليهم كبشر وأحولهم إلى إرهابيين... وباء عالمي من الحشرات التي تحبو على أرضنا يلوثونها برغبتهم الهدامة في القضاء علينا. أقتلهم كأشخاص وأعيدهم كأشياء يجب أن تُدمر. كنت حشرة يوم دخلت إلى عالمي السري. لا شيء مما قلته أو عملته محا شعور الإشمزاز الذي أجبرت على العيش معه، لا أنكر ذلك، ولكن تدريجياً، آه فعلاً تدريجياً، تركت صوتك يغمرنني ويضمني كحبيب ولم أعد وحيداً. والآن يجب أن تعيش ذكرياتي في ضوء عينيك، عيناك التي ترى من خلال ترانيمك، التي تغنيها لي بحلاوة.

وهذه الترنيمة التي تقول أن كلاهما سيتدمران. الحشرة والمبيد، المبيد يتطور لكائن آخر عديم الرحمة كآلة لا واعية لا تمحو المساجد والبيوت وأهل إليوسيا فقط، ولكن أحشاء روح نيفاريا... هذا

ما أشعره الآن. حقيقة لم اعترف بها سابقاً... أنا اخلق الواقع. أقول لشعبي لا يوجد أبرياء بين أعدائنا، لا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ممن يمكن أن يقوموا ضد نيفاريا. كل شخص يُقتل وكل بيت يُدمر وكل مدرسة تباد. هدف عسكري. الإرهاب يجب أن يُقتلع أصرخ من أعلى الأسطحة.

أنا أتمتع بهذه القوة. إني أحول خوفنا الفطري من إضطهادنا إلى فضيلة جبارة تحول الكره و الإضطهاد إلى مكافأة مُنحت... هل تصدقون... من الله إلى شعبه المختار. الشر يثمر فضيلة. مع هذا أعرف أنني خلقت في نفوسنا أرضاً قاحلة ومكاناً عقيماً لا رحمة فيه ولا رضى. مجرد خوف يتقيح باستمرار، خوف ليس من الآخرين فقط بل من أنفسنا.

أعرف أن قصتي أكذوبة. إنها علامتي المميزة مختومة على جبين كل نفازي كعلامة الملاك الذي سجلنا قديماً المختارون. علامة الخوف دمفت على جلودنا، وطبعت على أرواحنا إلى الأبد... كل ما أعمله ملتف بالكذب. يمكنني كشف الكذب لأنني أعرفه جيداً. أكذب على الإمبراطور بأننا إخوان، ضحايا من يكرهوننا، أكذب على قادتي لأضمن ولاهم بإضافة لمسة من الخوف: أكذب على الصحافة وأفرض عليهم مقالات تمدح إنجازاتي كتبها أخصائيون ماجورون. ولكن هناك كذبات لا أفترها، كذبات إهمال الواجب. لا أسمح أن يرى أي كان أعمالي: لا خارجي يدخل ليرى ما وراء جداري. الصدق للعالم هو صدقي... لعل ما عملته لروح النفازيين هو كالأبتلاء بخلايا سرطانية تتكاثر وتنتشر في الجسم وتفسده من الداخل ويصبحون مثلي الأحياء الأموات.

من السخرية أنني وصلت لهذه المرحلة. التأمل بالتكفير، والعالم لن يشك ولن يعرف أبداً أنني تراودني هذه الأفكار. لقد دمرت الناس الذين قصدت حمايتهم ومع هذا سأظل دائماً المحارب الشرس، والحامي لنفاري الذي لا يلين. الصدق نادراً ما يرى النور.

ينزلق المريض ثانية في ظلامه غافلاً مؤقتاً عن العالم المصطخب حوله هوميليا وكاريتا تتهيان مهامهما بصمت، تفكران بشعورهما بالفربة وسط هؤلاء القوم الذين يتصرفون معهما ببروتينية أو يتجاهلونهما تماماً.

تعالى معي إلى مقهى الإنترنت يا كاريتا. تقترح عليها هوميليا. عليّ أن أرى إذا أرسل لي إسماعيل رسالة قبل أن يسافر إلى جويبا. شاهدت الأخبار على التلفزيون ليلة أمس. القصف في جنوب إيلوسيا مستمر والوضع يزداد سوءاً، إنني قلقة. لقد مضى على حصارهم خمسة أشهر.

هل تقصدين المقهى في آخر شارع دسبوندا، دكان الشوكولاتة؟ أحب ذلك المكان. رائحته حلوة والكومبيوتر في الطابق الأرضي وله خصوصية. لنذهب.

شارع دسبوندا هو مركز التسوق للإيلوسيين القاطنين في البلدة القديمة المسورة. أبواب خضراء سميكة تحدد الدرب من طرفيه، إنه أقرب إلى الدرب منه إلى شارع ولا يزيد عرضه على 12 قدم. بفض النظر فكل دكاكينه مغلقة منذ فرض منع التجول لفترة الموسم المقدس هي أيام الجمعة تتطلق صفارات الـ (ق.أ.ن.) تعلن ثلاث ساعات من إيقاف منع التجول، ما يكفي من الوقت ليسمح للسكان أن يسرعوا إلى الحوانيت لشراء لوازمهم الضرورية. في هذا الوقت

ينتشر الجنود في الشوارع للتأكد من أن فتح الحوانيت وسير الناس في الدروب الضيقة لا يثير حوادث. عادةً يظل الجنود في غرفة الحراسة المقامة في نقاط معينة أو على أسطح بعض البنايات في المنطقة. قبل هبوط الليل يسير الجنود كل اثنين أو ثلاثة معاً مسلحين ببنادقهم الM 16 في الطرقات لتفقد الأمن في البلدة القديمة. لا يسمح لأحد بالسير في الشوارع ما لم يكن معه هويته الشخصية الصادرة من (ق.أ.ن.) لكل من هوميليا وكاريتا هوية بسبب عملهما في المشفى.

عندما تقتربان من الدكان تلاحظان أنها مغلقة كسائر الدكاكين على الجانبين. تتذكر هوميليا أن آخر رسالة استلمتها من إسماعيل كانت قبل منع التجول بيوم. لم تفكر بمنع التجول وإغلاق المحلات بسبب شوقها لسماع أخبار من إسماعيل. تأملت أن يكون قد وصل إلى جوياء، وبدون أي تعليق تعودان أدراجهما وتتجهان إلى بيت الجدة.

اليوم السادس: الغفران

تستيقظ هوميليا باكراً في اليوم السادس من الموسم المقدس وكلها شوق وتوتر لما سيحدث في هذا النهار. مع العلم أنها لن تعود إلى البيت قبل هبوط الظلام. تعلم أنها تستطيع التأخر وستتمكن من عبور نقاط التفتيش بفضل هويتها التي تشير إلى عملها في المشفى. ومعظم الجنود في البوابة يعلمون أنها تمتعت بالجنرال. تقع الصعوبة في الوصول إلى الجهة الشرقية من البلدة القديمة. إلى الشارع الجانبي حيث تنتظر الحافلة الصغيرة التي تقل الإليوسيين إلى القرى. أما لو استوقفها بعض الجنود لإستغربوا أنها تبعد عن المشفى وليس بإتجاهه. أما السبب في ذلك فهو أنها ستحضر فتاة أخرى للتظيف إذ أن كاريتا لديها اليوم عطلة.

ترتدي ثيابها بعناية، ألواناً هادئة، جلباباً رمادياً يصل إلى كعبيها، وخماراً أسود على رأسها وكتفيها. تحمل في حقيبتها زجاجات مياه للشرب تكفيها لطريقها ذهاباً وإياباً. يحمل الهواء غباراً يزعج حلقها، وبالرغم من برد الشتاء فالنوافذ المحطمة تسمح للرمال بالدخول إلى الحافلة. لركوب الحافلة عليها الوقوف بالطابور تحت الصفيح المجمع الذي يغطي ممراً ضيقاً لجنود الحراسة من ال-(ق.أ.ن.).

كان هناك عشرة في الطابور عندما وصلت، كلهم من النساء كبار السن يعملن في المدينة القريبة في تظيف بيوت الإليوسيين ذوي الوظائف الهامة. عليها الإنتظار حوالي نصف الساعة. يُطلب من إثنتين من النساء الخروج من الطابور والوقوف وراء لوح من الصفيح لنزع ثيابهن للتفتيش كنوع من الروتين الإستبدادي اليومي ولحسن حظ هوميليا إزداد عدد المنتظرين في الطابور مما جعل الجنود يسرعون في تمرير الناس قبل أن يفقدوا السيطرة على الوضع.

عندما تصل هوميليا خارج السور تسرع إلى الحافلة التي تراها من بعيد ينبعث من أنبوبها الخلفي دخان أسود. الشارع ضيق والنفايات منتشرة فيه: علب كرتون ممزقة، كرسي خشبي مكسور، براميل ماء مبعوجة، علب طلاء قديمة، أكوام من ألواح الخشب المستعمل. مزق قماش حمراء وخضراء، مستودع حقيقي للنفايات يملأ الشارع. الساعة السادسة صباحاً والحافلة تكاد تمتلئ بالركاب. تدخل هوميليا وتجلس في المقعد الخلفي. الركاب عشرون امرأة تلبسن ثياباً طويلة ومعاطف سميكة وتحملن أكياساً من القماش. البعض تبكين. أرضية الحافلة موحلة ورطبة، وبعض النوافذ مكسورة أو مشققة. إن سار كل شيء كما يجب، تصل جويًا بعد ساعة.

تتحرك الحافلة ببطء وتتجاوز السور إلى طريق ترابية عبر حي قديم شرق المدينة. يكاد الزقاق يطبق عليها وهي تتعرج صاعدة في التلال. تغرق هوميليا نفسها في مقعدها وقد لفت معطفها جيداً حول عنقها. من النافذة يبدو السور الإسمنتي الشنيع بارتفاع 25 قدماً في السماء القائمة. تزحف الحافلة ببطء في الطريق المتعرجة بين السيارات المرصوفة، وعربات الحمير المربوطة والمركبات المقبلة. من اليمين يشرق شعاع ضئيل من الشمس. بينما تسير الحافلة بحذاء السور الضخم وتتجه شمالاً إلى جويًا. الفيوم السوداء لا تزال تغطي المدينة والتلال بالرغم من شمس الصباح الباكر التي تطل فوق التلال البعيدة وأفق البيوت التلاصقة كعلب فوق المرتفع. إلى جانب الطريق من اليمين تصطف بنايات كالمكعبات، رمادية وبيضاء وقد التصقت بها إضافات كأكواخ للتخزين، أو مداخل للبيوت. تتدلى أسلاك الكهرباء برخاوة فوق الرؤوس، وتمتد عبر السور حيث ترتفع منذنة مسجد، وقد انفصل عن الحي الذي أقيم لصلاة سكانه.

يرتفع السور محاذياً الطريق ويتسلق الجبل شمالاً. لا يوجد حاجز، ولا رصيف، ولا فتحة في الطريق الملتوي شرقاً حيث يوجد القسم الشرقي من إليوسيا، وقد انضم إلى نفاريا مضيفاً توسعاً للحجاج في البلدة القديمة. تستمر الحافلة في سيرها شمالاً، وتخترق مئذنة المسجد وراء السور وتلتوي الطريق شرقاً، منعطفة يساراً ثم يميناً في صعودها على الجبل. تبدو البيوت وكأنها ملتصقة ببعضها ومتراكمة بأحجامها المختلفة، وألوانها المتباينة من الأبيض إلى الرمادي، والإسمنتية التي لا تزال قضبان الحديد بارزة من جدرانها. وعلى الأسطح ارتفعت براميل المياه وقد ثبتت بأسلاك إلى أماكنها. وحيثما نظرت تتطاير أوراق ممزقة وعلب فارغة وأكياس من النفايات والتك وأكوام من الحطب والأخشاب، وحبل غسيل يتدلى منه قعيص منسي يتطاير في الهواء. هذا المنظر لكرتونات البيض مع مربعات ومستطيلات مظلمة لتعلم الأبواب، والنوافذ، ومساحات منعزلة تكونت من متدليات. يتكرر في الجانب الأيمن إذ تتطرق الحافلة متجهة إلى الغرب، وباهتزازها تتمايل هوميليا وهي تفكر بمريضها.



في تلك اللحظة، تحركت فيه الحياة. مع أنه لا صوت حوله يسبب يقظته. يشعر أنه وحيد في الهدوء المحيط به. يعتريه خوف بدائي كالذي يشعر به صياد وحيد يلاحق دُباً جريحاً؛ خوف لم يشعر بمثله طيلة أشهر استلقائه اللاشعوري في قبره اللحمي. لكنه الآن يستيقظ من حلم مزعج يضغط على دماغه المتيقظ كالكماشة.

استيقظ من حلمه على ترنيمه تحوم في نواح حزين على رؤوس التائبين المنحنية في كنيسة الرب في القرون الوسطى في المدينة

القديمة دسبيريا. اللحن المتكرر يعلو وينخفض في نبرات مكبوتة تناسب ترنيمة جنائزية ينشدونها في قداس لراحة الميت في تابوته عند قاعدة الهيكل، الشموع الطويلة برتقالية اللون مثبتة على الجانبين. أسطوانات سميكة تملؤها لهبة مترجرجة بينما يندفع دخان البخور باتجاه القناطر المتشابكة في الظلام فوق صحن الكنيسة تفتح عيناه على هذا المنظر من تجويف القبة العميق حيث يلاحظ كل شيء من الممر الضيق المحيط بقاعدتها. ينظر إلى التابوت في الأسفل البعيد فيرى وجهه، عيناه مغلقتان، ويداه موضوعتان بعناية على صدره تحت الأشرطة والأوسمة التي تزين ثوبه الرسمي. لا يتعرف على أحد في مقصورة الكنيسة، لا وجوه مألوفة، لا دموع، لا حزن على الميت، فقط عندما يدقق النظريرى مجرد أشكال بهيئة بشريملأون المقاعد. منحنون، رؤوسهم منكسة، بلا وجوه أو حياة، سراب ساخر يصور المحبة والرحمة.

بعد صدمته بهذا المنظر يتحرك فكره إلى الأسفل حيث صحن الكنيسة المظلم باتجاه البوابة الغربية تحت أنابيب الأرغن التي ينعكس عليها نور الشموع فتبدو كعيون تتراقص نظراتها المشعة. يدخل شخص وحيد من البهو العميق، شخص تحيطه الظلال المتداخلة مع نور المساء المتسلل من زجاج النوافذ الملون. يتحرك الشخص أماماً بصمت. وقد إلتفت بقلنسوة سوداء تصل إلى الأرض، صورة من محاكم التفتيش، مخيفة ومدهشة في رؤياه المتخيلة.

إنما هناك شيء مألوف في هذا الشخص، ليس لأنه رآه سابقاً ولكن لأنه يشعر حضوره، ويعرف أفكاره، وتجاوب هذا الشخص الهادئ لوجوده، وإنتباهه له، إعتاقه لورطته المرعبة السواد المطلق الذي يلفه، والحاجة الملحة لأن يرى الآخر. أن ينظر في عينيه،

يلمسه، ويخترق حاجز الجسد. وفجأة، في لحظة مخيفة يعرف أنها هوميليا.

تقترب من النعش، تنثر الشموع ضوءها الخافت في القبو الواسع حيث وُضع النعش، وتتير هوميليا إذ تقف قريباً من درجات المذبح. تقف خلف رأسه وتتنظر إلى وجهه المنتفخ، وعينيهِ البارزتين المغلقتين، وبشرته المبقعة. تلمس بيدها اليمنى عينيه المغمضتين إصبعاً على كل عين وبيدها اليسرى تغطي فمه، بينما ترفع رأسها ببطء باتجاه القبة وكأنها تعرف أنه واقف هناك يرقبها في الأسفل، وبهدوء تقرأ ترنيمة لم يسمعها منها في السابق، يكاد لا يسمع صوتها الخافت وإنما صداه إذ يرتد إليه برفق ما عدنا غرباء. وفي حلمه يرى عينيه تفتحان ويستطيع الكلام.

ويستمر الحلم. ينهض من النعش ويندفع في ممر صحن الكنيسة نحو المدخل الغربي. يحيطه نور المساء الخافت بظلاله الذهبية، نور ناعم، فخم ومقدس وكأن يد الله رسمت المنظر. يندفع نحو قاعة الاجتماع الإلهية عابراً الرايات البيضاء المزخرفة بالدوائر الذهبية الثلاث رمز الموسم المقدس المعلقة على أعمدة الكهرباء في شارع بيوكريسز. يرى الحجاج أمامه يتدفقون إلى القاعة، وقد ارتدوا ثيابهم البيضاء ويحملون عصي مذهبة ومزينة بالرايات ذاتها، وكلهم يرتلون مدائح للرب الذي منحهم الغفران. يبدو وكأنهم لا يتوقعون يوم العقاب والثواب.

يستمر المريض في ركضه ويدخل القاعة في الوقت الذي يجلس فيه جميع الحجاج على مقاعد القاعة. وإذ يدخل في دائرة الضوء القوي المنتشر داخل القاعة وجدرانها المغطاة بالرايات البيضاء، يدرك

أنه هو أيضاً يرتدي ثياباً بيضاء. وإن كان في عباءة المشفى والمشمع مثبت على كتفيه يجره وراءه إذ يسير في الممر الرئيسي بصعوبة. يصعد الدرجات إلى المنصة ويلتفت إلى جمهور المصلين وهو يلوح بذراعيه فوق رأسه ليلفت إنتباههم. وتدرجياً يلاحظون هذا الغريب، إلى أن يفمر الصمت قاعة الإله.

إنه يسمع الصمت. الصمت النابض الذي يكتفه ويسجنه يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر في فراش المشفى. لا يقطعهُ سوى طرطقة صينية الطعام. أو ملاحظات عابرة من بعض الأصوات. وصدى اليوق الوحيد: يضغط براحتيه على أذنيه وكأن ضجيج طلاقات مدفع تمزق القاعة وترتد على الجدران الجرانيتية. عيناه البارزتان تحمقان في آلاف العيون المصوبة عليه، جنرالهم، المريض في عباءة المشفى والذي أسكتهم بتلويح ذراعيه، وعندما أطبق الصمت أغلق أذنيه بيديه، صورة لمجنون يهذي ويطلب سماعه ولكن لفرابة الموقف عندما يفتح فمه للكلام لا يصدر عنه صوت وإنما إذ يلفظ كل كلمة بعناية. يعبر وجهه عن عذابه الموجه الذي مرّ به. ويكشف بحركاته قوة الإعراف المؤلم الصادر عن قلبه، إعراف أن هذا هو تفسيره الذي يطلب من خلاله أن يمنحه الشعب الذي دمره العفو والغفران.

أتقدم إليكم بفضل قوة ملاك كسر ختم الصمت الذي حبسني في قبري الأسود، حي ميت، مستيقظ نائم. واع غائب عن الوعي، منسي، معزول. مُبعد عن عائلتي وأصدقائي وأبناء وطني، الشخص الحزين المتألم من لامبالاتكم، خطيئة إهمالكم، أشد الخطايا تدميراً للإنسانية، محو الوجود من الذاكرة.

ولكنني لا آتيكم غاضباً، لا آتي لأوبخكم ولا أريد إهانتكم، آتيكم بروح منسحقة ندماً أطلب منكم غفران ذنوبي، لأنني أنا سبب آثامكم، وعدم إنسانيتكم ولا مبالاتكم التي شجعتها ولا أخلاقيتي التي قمت بها في كل أفعالي الفاضحة والحقيرة والماكرة والشائنة بحق إخواننا، عاكساً حقيقة بربريتهم إلى فضائل مجيدة، وفي المسيرة أصابتم عدوى شروري التي انتشرت كالسرطان في جسد نيفاريا كلها تقسدها من الداخل بحيث لم تروا مدى سواد آثامكم وفسادكم.

أقع أمامكم طالباً المغفرة لأنني أخطأت. يا إخواني وأخواتي لقد ذبحت الأطفال في حضن أمهاتهم. لقد أطلقت صواريخ في شوارع مزدحمة، هللت للمجازر التي سلطت على الأبرياء. لقد نسيت أصدقائي وعائلتي حتى أطفالي في سبيل إحراز السلطة على الجميع. لقد دفنت تعاليم الأنبياء تحت قدمي وتخلّيت عن كل شيء في سبيل مجدي، أبكي الآن لتشهدوا عمق عذابي . سامحوني، سامحوني.

وإذ يقف المريض في وهج الأضواء التي سلطت على المسرح وعلى مظهره المضحك في ثياب المشفى التي تتدلى من كتفيه حتى ركبته والمشمع يلوح يميناً وشمالاً، وهو يذرع المسرح ذهاباً وإياباً رافعاً ذراعيه ومحددقاً بقوة في الجمع بنظرة ثاقبة، يهب كل من في القاعة غضباً على هذا الرجل المجنون السمين الذي يتجول على المسرح ملوحاً بذراعيه فيهجمون عليه يحاولون دفعه وراء ستائر خلفية المسرح.

وطيلة وقوفه وسيره على المسرح مخاطباً الجموع بقبضته مستعظفاً إياهم لسماعه، محركاً ذراعيه صارخاً بأعلى قوته

ليسمعوا- دون أن يصدر عنه أي صوت. لا كلمة تسمع ولا شخص يتقدم إليه ليلمسه بعطف، وينظر إليه برحمة، إنه وحيد كما كان ووحدته تلتجئ إلى جسده الخامد المتشعب بالثياب البيضاء، عيناه مفلقتان، وفمه مفلق، ويداه منفردتان على صدره، ولا صوت سوى نكتكة مراقب قلبه الخافت، وجسده الذي قام بهذا المشهد من حافة قبة المبدد. مسجى في قبره بين الجدران.

يوقظ إهتزاز الحافلة هوميليا من إغفائها القصيرة، التي بدأت بتفكيرها بمريضها الوحيد بدونها لأول مرة منذ أشهر، وتحولت أفكارها إلى مدفن تراه بمخيلتها في نهاية قاعة تغمرها الظلال، مكان لا تعرفه ولا يمكنها تفسيره وإنما يفمرها شعور أن مريضها يتصل بها، ولا تدري كيف أو لماذا. ولكن المنظر الخارجي يقطع أفكارها إذ ترى مخيم اللاجئين الذي يبعد خمس عشرة دقيقة عن جوياء.

ينتشر المخيم على الطريق إلى يمين الحافلة. ممراته الترايبية لا تتسع لمرور أكثر من سيارة. بنايات كالصناديق ترتفع على زوايا المنحنيات تزيد من صعوبة مرور السيارات. كتابات على الجدران الإسمنتية وملصقات ممزقة ورايات قديمة تلوح في الهواء. أسلاك كهربائية تتدلى من أعمدة عبر الممرات لبنايات مجاورة، بينما تتكفل أسلاك أخرى بين الأعمدة فوق المرتفع. براميل للمياه على الأسطح تطل على النفايات في الأسفل مقاعد منبوذة سيارات خردة أوعية وحجارة ملقاة بلصق الجدران.

أطفال يتراكمون في الممرات، أو يقفون أمام البيوت بممصانهم الملونة صورة مكلمة للألوان الباهتة والملصقات على الجدران. تلاحظ

هوميليا المياه الجارية في الطريق الموحلة حيث يلعب الأطفال. وتذكر يوم غادرت جويًا للعيش في دسبيريا قبل سنوات وترى كيف يتجمد الزمن هنا، لا شيء يتغير والشناعة تظهر باستمرار كالغيوم السوداء التي ظللت دسبيريا منذ بداية الموسم المقدس قبل سبعة أيام. كل شيء كئيب، بشاعة متواصلة تتغلغل في الروح كمياه المجاري التي تفر مسارب الطرقات.

تستيقظ تماماً عند إقترابها من البيت، متحمسة للقاء إسماعيل للمرة الأولى منذ سنوات، ولقاء أمها وأبيها الذي ترتعش من إنطوائه وكأنه بصمته يلوم الجميع، حتى الذين ضربوا مثله. وعائلته على وضعه، وقد أصبح مقعداً منزلاً منذ إحتلال جويًا وبناء السور وتغيير الأوضاع، فلا أحد يستطيع الدخول والخروج يدون إذن من (ق.أ.ن.) ولا يمكنهم حتى إجتياز السور إلى أراضيهم لجمع المحصول بدون الإنتظار حتى يفتح السياج حسب رغبة الجنود. حتى قمصانهم يمنعون من ارتدائها إذا نقش عليها ما لا يعجب الجنود. شباب في الثامنة عشر من عمرهم يتحكمون برجال ونساء أكبر منهم سنًا أضعافاً وأكثر. لا شيء كما يجب أن يكون، تفكر هوميليا والغضب يملأها.

تصل الحافلة إلى مرتفع في الطريق عند مدخل البلدة ثم تنحدر غرباً حيث يمكن رؤية البحر عن بعد. تجلس هوميليا بإنتباه وهي ترى البنائيات المألوفة حولها والجيران الذين يتجولون ويتسوقون ويحيون بعضهم. تبتسم وهي تشعر بدفء الأهل يغمرها. يقطع تفكيرها نقر على النافذة، تلتفت لترى إسماعيل يركض بجانب الحافلة بلحيته الداكنة التي فاجأتها وقد بدا أكبر سنًا. ولكنه بحماس الشباب يناديها

لتفادير الحافلة. يلحمه السائق في المرأة فيتوقف. تندفع إلى الباب وتقفز بين ذراعيه ودموعها تنهمر بشوق خمس سنوات من الفياض. ينتظر السائق فترة، ثم يلقي بحقيبة هوميليا لإسماعيل ثم يواصل رحلته.

يسير الإثنان متمهلين وهما يحييان جاراُ يجلس خارج المقهى، واللحام الذي هرع مرحباً، ويعاودان حديثهما وإبتسامة السعادة تطل من عيونهما فرحاً بهذا اللقاء. يصطحب إسماعيل هوميليا إلى المخبزي الزاوية، مكان صغير، بابه نصف مفتوح، ورفوفه الزجاجية مليئة بالكعك الساخن يجلسان خارجه يحتسيان الشاي، يأكلان ويتحدثان.

ماذا فكرت عندما عدت؟ تسأل هوميليا ولهجتها تشي بالجواب المنتظر كيف رأيت التغييرات؟

تعرفين ما الذي اختلف وكيف أشعر. هذه الدقائق الأخيرة، السير معك متمهلين، نمسك بأيدي بعضنا ونضحك، مجرد أن أراك ثانية كما كنا قبل سنوات، كل هذا تغير، أنت تعرفين، مثلي. نحن نعيش في قفص. لا حرية حركة. لقاءنا الآن وفرحنا به هو كل ما لدينا، فقط هذه اللحظات، نفتح عيوننا صباحاً لنرى السور الذي يحيطنا كحزام فولاذي. كيف أشعر؟ كرهه. ينظر إسماعيل غرباً نحو البحر الذي كان محط أحلامه في صفره، حيث يمكن تحقيق كل ما يتوق إليه. ولكن الآن، تفضح عيناه ولهجته شعوره بالعزلة، والعجز، واليأس الذي يطوقه كالجدار.

ليلة أمس عندما وصلت، رأني سند، تذكرينه؟ عمره اليوم حوالي 12 سنة، ونداني. تحدثنا. أتعرفين ماذا أخبرني؟ تماماً ما قلته لك

الآن. إستلم أهله رسالة من (ق.أ.ن.) يأمرهم أباه أن يهدم حظيرة الماعز التي كانت لديه دائماً وفيها البقرة والحمار وبعض الدجاج. هذه الحظيرة التي أقامها من ألواح الخشب والصفيح ليؤوي ماشيته، تعرفينها... تعرفين لماذا؟ لأنها قريبة جداً من السياج، تلك الزريبة الفولاذية الشنيعة التي أحاطونا بها وأقاموها على أرضه دون أن يدفعوا له ثمنها. الحظيرة التي أقيمت قبل سنوات قريبة جداً. دون عرض لدفع تكاليف حظيرة جديدة، أو على الأقل ثمن الأرض التي صودرت... مجرد إهدمها أو يهدمونها هم... كيف نعيش مع هذا؟ كان الغضب واضحاً وهو يعيد قصة سند، الولد اللطيف الذي عرفه كل عمره والذي لا يستطيع أن يفهم تصرفات الجنود.

أذكر سند وأمه. لديهم أشجار زيتون قديمة في تلك الأرض، أو كان لديهم، لا أعرف كم من الأشجار جُرف. أعرف شجرة عمرها ألف سنة قرب الحظيرة، بجانب الجدار. ما أفضح أن يقطعوا كل تلك الأشجار ليبنوا هذه البشاعة. أعرف ما الذي تقوله ولكن يا إسماعيل، لدينا وقت قليل معاً، دعنا نتمتع به، أرجوك. زوجته هوميليا.

حسناً، لنذهب إلى البيت لنقضي بعض الوقت مع العائلة.

نعم، ولكني أريد أن أعرف ماذا تعمل هناك. بماذا تشتغل، كيف تعيش؟ هل واجهك الحجاج وال- (ق.أ.ن.)؟

لدي قصص لن تصدقها، قصص أخشى أن تبكيك. أمور عشتها ولكني لا أفهمها. يسيران شرقاً باتجاه البيت القائم بين مجموعة من بيوت كالعلب من طابق واحد تحيط بالمدرسة الابتدائية في طرف البلدة، معظم البيوت لها ساحة صغيرة من الحصى يحيط بها حائط بارتفاع ثلاثة أقدام، بعضها لديها حظيرة لبعض الماعز أو حمار،

والبعض تقف على بابها سيارة تجارية قديمة مغبرة. تلاحظ هوميليا أن إسماعيل يعرج قليلاً، وللمرة الأولى تتبته إلى ثيابه البالية والمتسخة. ترى أنه قوي، تشد أكتافه المريضة معطفه الأسود القديم. طاقيته الصوفية ذات اللون الكحلي تدفع خصلات شعره الأسود إلى الوراء فتتأثر على ياقة المعطف وتجعله يبدو أضخم من حقيقته. تحت اللحية يبدو وجهه أنحف مما تذكر، وقد بدت الخطوط حول أنفه، وضمر خدها. ولكن عيناه المشعتان تشدانها إذ يحيط بؤبؤهما البني خط أسود يبرز البياض الناصع للعينين. تشعر بعمق نظراته، التبه والتيقظ التام لكل ما يحيط به وكأنه لا يسترخي أبداً بل يراقب كقط حشر في ساحة غريبة.

أنت تمشين معي ولكنك في مكان آخر. بم تفكرين يا هوميليا، فأنت صامتة.

عفواً، إسماعيل، ولكن خطر لي كم تختلف حياتنا. أنظر إليك للمرة الأولى بعد سنوات واكتشف إختلاف مسيرة كل منا. ثيابك، عرجك، وعيناك، يوحى لي عمقهما أنك رأيت أموراً لا أستطيع تخيلها. أما أنا فقد عشت حياة مؤمنة. ما علي إلا أن ألتزم بروتين عملي، وأتجنبهم قدر الإمكان ثم أعود لجديتي وأصدقائي. ولكن أنت ... أنت في مكان آخر، مكان أخشى أن أذهب إليه. سامحني على سكوتي يا إسماعيل، أرجوك. تكلم هوميليا بهدوء إذ تواجه للمرة الأولى هذا الإنقسام بينهما، أفكار قد تفتح أبواباً لم تظن أنها ستفتح اليوم.

خلال ساعة ترى هوميليا أن زيارتها لترى إسماعيل أصبحت حدثاً هاماً في الحي. يجلس الجيران على كل كراسي البيت ومقاعده وحول

الطاولة بجانب أمها وأبيها. تقف مستتدة إلى الباب بين غرفة الجلوس والمطبخ، تراقب إسماعيل وهو يرد على أسئلتهم. يجلس في الغرفة بحيث يراها، فقد جاء ليراها. يلاحظ أنها نضجت بحيث تستوعب كل ما يقوله. أصبح البيت الصغير قاعة إجتماع في جوبا حيث يسمع الأهالي صوتاً قادمًا من أماكن بعيدة، صوتاً يذكر بقصص الأنبياء القدامى وهم يقصون أحاديث عن أقارب يتعذبون كي لا ينسوا ويفرقوا في اللامبالاة التي تسم مفتصبيهم. ولكن لا يبدو إسماعيل كأحد الأنبياء القدامى: حركاته ونبرات صوته، وتيقظه، يعطي حيوية لحماسه وشبابه.

بينما يشرب بعض الضيوف الشاي وآخرون الماء، يصف إسماعيل حيث كان في الجنوب، وكيف تغلب على الصعوبات لأشهر قليلة، إلى أن التقى. بمساعدة أصدقاء، بالعاملين لحقوق الإنسان وهم يعدون تقارير شهود عيان وإحصائيات حول الإصابات والقتل وهدم البيوت، والحوادث. ومصادرة الأراضي. والسجن والتعذيب، لمنظمات دولية لحقوق لأنهم منعوا من دخول مناطق من جنوب إليوسيا. بسبب هذه النشاطات يبذل (ق.أ.ن.) وقتاً ومجهوداً كبيراً لكشف الإليوسيين الذين يعملون لمؤسسة حقوق الإنسان الدولية وسجنهم أملين عبثاً بوقف التقارير. بينما كان يتكلم لاحظت هوميلى أن أباهما جلس مصغياً بانتباه، وبفخر ظاهر بإبنه الذي غادرهم قبل خمس سنوات بعد إصابة أبيه على يد (ق.أ.ن.) وضربهم وإذلالهم له. لربما يرى نفسه في ابنه إسماعيل. أحضرت معي بعض التقارير قال إسماعيل وهو يروي مغامراته في الجنوب. ولكني لم أتورط بجمعها. كل منا يذهب كل يوم ليشهد على حدث في مكان مختلف. كثيراً ما نحصل على معلومات عما يمكن أن يسبب مشاكل ويجعل (ق.أ.ن.) يتدخلون،

كإعتصام سلمى أو مظاهرات ضد الجدار . فنذهب هناك لنجمع معلومات أو نراقب ما يحدث. أحياناً نسجل حوادث على الكاميرا أو الفيديو ولكن كثيراً ما يأخذ (ق.أ.ن.) الكاميرا وهذا يكلفنا غالباً. ولكن كثيراً ما تحدث أمور بالصدفة. وعلينا دائماً أن نتظاهر بالبراءة، وكثيراً ما أعجز عن التدخل لأن هذا يكشفني وينهي فعاليتي. التقارير هي الطريقة الوحيدة لإخبار العالم عما يحصل. ولكن حتى هذا أحياناً لا يجدي لأن النفايين ينشرون تقاريرهم التي لا تحتوي على معلومات، وإنما ترمي ظلماً من الشك على صدق تقاريرنا.

لماذا يُسمح بهذا؟ لماذا يسيطرون على كل شيء؟ ألا تعلم المنظمات العالمية والولايات الإشتراكية الحقيقة؟ ألا يرون ما يحدث؟ لفتت لهجة السائل الغاضبة إنتباه الجميع فتجاوبوا معه. نعم... نعم... أنت على حق.. يتفهم إسماعيل ردود فعلهم ويحاول أن يفسر لهم ما يعرفونه: العالم الخارجي يعيش في جهل لأن الخاصة الحاكمة، حكومة نفاريا ورئيس وزرائها، الجنرال ديماس، يقررون ما يمكن نشره وما يجب إخفاؤه. إنهم لا يسيطرون على نفاريا فحسب، وإنما في الولايات الإشتراكية من خلال تكتلاتهم اللوبي التي تضمن سيطرتها لأن النواب في الحكومة يخشون على مراكزهم إن حاولوا الإستخفاف بنفاريا.

دعوني أعطيكم مثلاً. يستمر إسماعيل حدث شاهدته مع كثير من جيران العائلة التي هاجمها (ق.أ.ن.) الذين شكوا بوجود إرهابي في شقة وسط مخيم للاجئين، ولكنهم أخطأوا بالمكان، وبصراحة لم يهمهم، بل اقتحموا البيت وأمسكوا الرجل المعجوز أب لأحد عشر طفلاً، جروه إلى الخارج، وألقوه على الحائط وانهاوا عليه بالضرب والصراخ والأطفال يبكون لرؤية ما يحصل لأبيهم.

كنت هناك وتذكرت ما حصل لأبي ... زاد الصراخ ولكن الرجل لم ينطق بكلمة، والأطفال يصرخون إنه أطرش، إنه أطرش ولكن الجنود لم يفهموا. فخرجت الأم وأشارت بيديها إلى أذنيها تشرح لهم ما لم يفهموه وصرخت إنه أطرش، أطرش! . ولكن غضبهم أخرجهم عن وعيهم، فأمسك قائدهم مسدسه وقتل المرأة... ثلاث رصاصات... سقطت على الأرض والدم ينزف من رأسها والجميع يصيحون طالبين سيارة إسعاف، ولكن الجنود أغلقوا الطريق ولم يسمحوا لأحد أن يذهب حتى ماتت. هل تعرفون كيف نُشر الخبر؟ وأجبت قوات نيفارية مقاومة جنوب إليوسيا أمس. قتل بعض الإرهابيين وامرأة مدنية أثناء جولة مصفحة وأين ظهر الخبر؟ في جملة واحدة في ثلاث جرائد في الولايات الإشتراكية المتحدة في الصفحة الأخيرة. هل تتصورون كيف كان ينشر الخبر في العالم كله لو اعتدى الإليوسيون على أهل نيفاريا! هل يجيب هذا على تساؤلكم؟

طبعاً. ولكن لا يخبرنا كيف نقاوم ما يحدث. ماذا حصل لأولئك الأطفال؟ من يعتني بالعائلة الآن؟ بالأب المسكين، من يطعمهم؟ كيف سيعيش هؤلاء الأطفال مع ذكرى ما راوا؟ هل أستمروا؟

لا لزوم يا صديقي، فالأمر أسوأ مما تظن. لقد أقنع النفاريون المنظمات العالمية، من خلال سيطرتهم على مندوبي الولايات الإشتراكية المتحدة فيها، أن منظمات حقوق الإنسان المحلية تتعاطف مع الإرهابيين بمساعدتهم ومساعدة عائلاتهم. لذلك لا تصلنا أموال من تلك المنظمة. لا يهمهم أن مساعدة العائلة لا تساعد الإرهابيين لأنهم يدعون في تقاريرهم أن الأب كان إما إرهابياً أو متعاوناً. وهذا يحدث كذلك مع من تهدم بيوتهم لأن ابن العائلة أو أحد أقربائها

المقيم معهم قام بعمل إرهابي، فالمعقاب الجماعي الذي يمنح لدى الجماهير الدولية ليس ممنوعاً في نزاريا، وإنما هو روتين.

مع استمرار الحديث يزداد حماس إسماعيل. يتعرق وجهه ويرتفع صوته. تدرك هوميليا هذا التغيير التدريجي. وتقلق عليه ولكنها تعرف أنه يلفت إنتباه هؤلاء الناس إلى ما يمكن أن يواجهوه مع مرور الزمن، فالإختناق القائم في جنوب إليوسيا سيحدث في جوبا قريباً. وتأكيد إسماعيل على عدم إهتمام الناس الذي يمكن أن يغير الأوضاع التي يروبوها ويهيئهم لعدم توقع أي تعاطف إنساني منهم. فهو يعتقد وهي كذلك، أنه عالم تحكمه نزاريا بلا رحمة. فمعرفة هذا يهيء الفكر لا القلب، للعذاب المتوقع

دعوني أعود لكيفية سيطرتهم على ما يصدر للعالم الخارجي. لقد أغاروا على مكتبنا قبل أسبوعين. كانوا يريدون القبض على البعض منا ولكننا عرفنا أنهم قادمون وغادرنا المكتب. فماذا عملوا لمنظمة سلمية. وهذا يخالف القوانين الدولية. ولكن لنزاريا لا يوجد إلا قانونهم الخاص.

تذكر أن تخبرنا كيف نشروا الحادثة. قال السائل.

لم يُنشر! وهذا مألوف في الجنوب. ولكن إليكم ما حدث. حضروا (ق.أ.ن.). إحتلوا المكاتب بضع ساعات، كسروا وأحرقوا كل أجهزة الحاسوب. رموا كل الشاشات على الأرض ورموا البعض من النافذة إلى الساحة. قطعوا أسلاك الكهرباء، أزالوا الأسطوانات وسرقوا محتوياتها والحواسيب المحمولة والهواتف وحرقوا الأوراق. ثم بالوا على الأبواب وتفوطوا على الطاولات، وتركوا رائحتهم كالكلاب وشتائمهم البذيئة... يدعوننا بالحشرات والصراصير وكلمات

الكراهية. هذا تصرف دولة متدينة مليئة بالحجاج الذين يحتفلون الآن بموسمهم المقدس. للعقاب والثواب والحمد لله. لطالما تعجبت لماذا لا يحتفلون بهذا العيد في اليوسيا.

أود أن أعرف ما شعورك تجاه هؤلاء الفتيان في ثياب (ق.أ.ن). . إنهم مراهقون ويتصرفون بهذا الشكل. كيف تفسر ذلك؟ لم يكن أحد في المكاتب. لم يفضبهم أحد. من أين نبتت الكراهية؟ من علمهم هذا السلوك؟ هل يدع سكان الولايات الإشتراكية أولادهم يعملون هذه الأشياء؟ هل يُعلمون أولادهم أن يكرهونا؟ إنهم لا يعرفوننا. هذا الكلام الحزين صدر عن امرأة كبيرة السن تجلس قرب والد هوهيليا، جارة قريبة عليهم وحضرت يوم ضربوا والدها قبل سنوات. حاولت هوميليا أن تتذكر إسمها، ثم تذكرته. ساجاسيتا. تذكرت أن المرأة حاولت أن تتدخل ضد الأشخاص المقنعين الذين هاجموا المظاهرة السلمية. سألتهم لماذا يتصرفون كالحیوانات، وما الذي يدفعهم كآباء أن يدمروا حياة أسرارخى وأبائنا . ولكنهم تجاهلوا ودفعوها جانباً. كانوا بعيدين عن المنطق. قوة متوحشة لا غير.

آه ساجيسيتا، أتمنى لو أعرف الجواب. أرى ما يعملون وأسمع ما يقولون وحتى أشم داخلهم. ولكني لا أعرف ما الذي يدفعهم لعمل ما يقومون به. هم فقط عليهم أن يجيبوا وليس لإلههم. مما أقرأ أن إلههم يأمرهم أن يعملوا هذه الأشياء. أي إله هذا؟ لذا هذا التفسير لا يرضيني. ولكنك تضعين سؤالك بطريقة مثيرة هل يعلمون أطفالهم أن يكرهونا؟ لم أسأل نفسي هذا السؤال، ولكن لو فعلوا، ماذا يمكنهم أن يقولوا لهم ليحملوهم يكرهون أناساً لم يقابلوهم. أقصد أننا نطلب من أطفالنا أن يتجنبوا الغرباء إذا طلبوا منهم أن يرافقوهم مثلاً، ولكننا لا نقول لهم إكرهوهم أو أقتلوهم .

لا أحب أن أقاطع يا إسماعيل، ولكن يوجد أمر آخر ليس كذلك؟ قال شيخ يجلس في زاوية الغرفة، كانت هوميليا تراقبه وقد حنى رأسه وأغمض عينيه، ولكنه كان متيقظاً ويصغي للحديث، لذلك لم تستغرب سؤاله. لقد تجاهلت تعاليم الدين لأنه إذا أمر النصارى أن يقتلوا الآخرين لأن الله إختارهم فوق الجميع. وإذا أمرهم بواسطة أوليائهم أننا أعداء، إذن الا يعلم الآباء أطفالهم أن يقتلوا؟ تحت هذه الظروف، مهما كان الدين، على من يقع اللوم؟ كيف يمكننا أو يمكن لأي قوم أن يقنعوا هؤلاء الذين تعلموا أنهم فوق الجميع، أن كهنتهم يدعون ما يقوله الله لهم؟ لعل هذا تفسير مربك ولكنه يرينا أن المشكلة صعبة الحل.

آه كوتيو، توقعت منك أن تثير هذه النقطة. أنت أهدق مني فعليك أنت أن تجيب على السؤال. أنا أعيش في عالم عملي، شناعات يومية تملأ حياتنا. نحن نعيش. إذا خلق الله العالم فقد خلقنا لنعيش فيه. لا أشتري اختيارات. إن مجرد الفكرة تناقض الألوهية. إذ يصبح الله منقذاً وشيطاناً معاً، إجتماع تناقضي. فأنت إما أن تؤمن بالله كإله أو لا. ولكن لا تخلق تناقضاً وتباركه على أنه حقيقة. هذا رأي إسماعيل يا كوتيو، هل يرضيك الجواب؟

أحسن مما تفضلت عليّ به في زيارتك الأخيرة، يا بني، إن الزمن يحسنك. دعني أباركك قبل عودتك.

هذا يشرفني. فعلاً قد يحميني دعاؤك من صواريخ وقنابل (ق.أ.ن) التي تهمر علينا باستمرار. خصوصاً مدينة إليوسيا التي يكرهونها بشكل خاص. يوماً بعد يوم يرسلون طائراتهم $F - 16$ لتلقي صواريخها على ابنيتنا. يوماً بعد يوم تفجر قنابلهم الصوتية فوق

رؤوسنا ورؤوس أطفالنا الذين يركضون ليختبئوا وأيديهم على آذانهم، والرعب يفقدهم صوابهم. أعمال مقصودة تعاد باستمرار. ولماذا؟ لأن مخربينا يرسلون صواريخهم الضعيفة إلى منطقتهم حيث لا تضرب شيئاً. مجرد إشارة تقول لهم أنتم تحتلون أرضنا بدون حق، أقل ما يمكن أن يعمله أي قوم ليبصقوا على محتليهم، البصاق والحجارة... هذا هو سلاحنا. هم يتصرفون وكأننا الجيش الروسي يحارب قوى ضعيفة تحاول أن تحمي نفسها من عدو عنيد متحجر القلب. أي سخف.

هنا ينهض إسماعيل ويعتذر لحاجته إلى الحمام. تنهض هوميليا لتحضر المزيد من الشاي والكمك. يتحرك الضيوف في أماكنهم بانتظار عودته، وكان قصصه جددت روابطهم مع عائلاتهم في جنوب إليوسيا. هذا الرباط العائلي الذي يجمع الإليوسيين في عذابهم الذي حل عليهم منذ ستين عاماً.

حسناً يا أصدقائي، دعونا نستمر. لقد احتجت لتلك الإستراحة فشكراً. لدي كثير من القصص ولا أدري من أين أبداً. تستطيعون الحصول على مزيد من المعلومات من هذه التقارير التي تشرح كثيراً مما لم أذكره: خاصة قتل الأطباء والمرضى وسائقي سيارات الإسعاف، لأن قتلهم يمنع شفاء الجرحى والمصابين. دعوني أخبركم إحدى أغرب الحوادث التي كنت فيها. حدث هذا قبل ثلاثة أشهر، إذ كنت أساعد سائق سيارة إسعاف دُعي إلى حي ليخلص أم وثلاثة أطفال أصيبوا داخل بيتهم. كان عدد من (ق.أ.ن.) في المنطقة عندما وصلنا، فتوقفنا على بعد خمسين متراً من البيت. ضغط السائق على الزمور ليخبر أهل البيت بوصولنا ليخرجوا الجرحى. لم نستطع أن نتقدم بسبب الجنود حاول السائق أن يتصل بوزارة الصحة تلفونياً

ويشرح لهم الوضع. أخبرونا أن ننتظر حتى يسمح لنا الجيش أن نقترب. بدلاً من ذلك بعد خمس دقائق أطلقت المصفحة النار علينا، لم نُصب ولكننا اضطررنا للتراجع. بعد دقائق رأينا جرافة ومصفحة تقتربان منا، واحدة أمامنا والأخرى ورائنا. بدأ سائق الجرافة يجرف رمال وحصى أمام السيارة بينما أتت أخرى وجرفت نفايات البيوت وراء سيارة الإسعاف، فحوصرنا بين النفايات وتلال الرمال والحصى. أصابت الجرافة سلكاً كهربائياً فسقط على سيارة الإسعاف ونحن عالقان في الداخل. جربنا أن نفتح الأبواب وهنا أطلقت المصفحة النار علينا. جلسوا يضحكون على مأزقنا، مع أنه لم يكن شيئاً مضحكاً. بعد ثلاث ساعات قالوا لنا إنه يمكننا أن نغادر. أزاحت الجرافة الزبائل واضطررنا إلى المغادرة بدون الجرحى. هذامثل عن إهتمام الجنود بصحة الناس تحت إحتلالهم. كيف تفسرون هذا؟ هنا أصبح صوت إسماعيل هادئاً و مليئاً بالجدية والسخرية.

مع استمراره بسرد قصص تعذيب البشر، أخذ غضبه وإحباطه اللذان كبتهما يظهران تدريجياً. وسلسلة الإذلال والعجرفة المسلطة على هؤلاء الضحايا الذين اجبروا على تحمل العذاب.

أتعرف يا إسماعيل، ما يدهشني هو تماسك السلوك. لاحظت ساجيسيتا تماسكهم في اللؤم الذي ينكر أن هناك أشخاصاً يؤذيهم ما يعملون. بعض الأعمال تافهة كإهانة أطفال في طريقهم إلى المدرسة، ولكن هناك أعمالاً مأكرة، شيطانية، كالتي ذكرتها الآن. لقد ضحكوا بينما كانت الأم وأولادها يتألمون. وأنت والسائق كنتم في خطر. إنه لؤم، أن تتكر إنسانية البشر. عدم مراعاة الآخر مهما كان الأمر. أي عقل قادر على مثل هذا التصرف؟ طالما هم ليسوا في

خطر فلا خوف عليهم . إنها ليست عداوة شخصية ضد من هاجمهم . إنهم لا يعرفون الناس الذين يعاملونهم بهذه القسوة . أنا لا أعرف حيواناً يعذب حيوانات أخرى للتسلية ، إلا إذا كان قطعاً يلعب مع فار . هل نشبه أنفسنا بهم؟

ساجيسيتا ، لا أفهم كيف يعامل الناس الآخرين بهذه الطريقة . أستطيع أن أفسر لماذا البعض منا يهاجمونهم ، حتى أولئك الذين ينتحرون ليقتلوا البعض منهم . أحياناً ، عندما ترين أباك يُضرب بلا رحمة ، وترين بيت جارك يدمر ، وترين الأرض تسرق والأشجار تُقلع ، وترين مصفحات I6-F وألوفاً من الجنود المسلحين يتدفقون على مخيم اللاجئين ويقتلون كل من يقع عليه بصرهم ، عندما تسمعين من صديق عن التعذيب ، يستولي عليك اليأس ، يأس يقضي على المنطق والرحمة وكل المبادئ التي عاش عليها المرء لسنوات ، وبإحباط تام لا يهكم من تقتل وتؤذي من الأبرياء . ولكن مهما كان الأمر فظليماً ، أتفهم الأمر . لا أفهم ما يعملونه فهوفوق إستيعابي . لربما يحملون ألماً عميقاً لا أستطيع رؤيته . كما يبدو لديهم كل شيء ، ومع هذا يعتدون على الذين لا يعرفونهم لسبب ما . الديهم شعور باليأس؟ لست أدري .

دعوني أحكي لكم مثلاً مخيفاً آخر . إنه واضح التعمد . وإنكار لمن يصيبهم . أنا لم أشهده ولكنه وصلنا من صحفي كتب عنه بالتفصيل . كانت ابنة 17 عاماً تستعد لإمتحانها النهائي . كانت تدرس في غرفتها في الطابق العلوي وتحفظ المادة وهي تسير جيئةً وذهاباً . كان نور الغرفة خافتاً . أنتصرون المشهد؟ شابة تسير في غرفتها يمكن رؤيتها بوضوح من الخارج . على سطح بيت مقابل كان يجلس (ق.أ.ن.) قناص . صوب هدفه بدقة بحيث قتلها برصاصة واحدة في جبينها . هذا قتل صارخ . لا حاجة للقول أنه لم يُعاقب . أخبركم القصة دون

ذكر الإنفعال داخل البيت، الأم تهرع إلى الغرفة، الدماء تغطي الكتاب، العائلة الممزقة، لأنني أريد التركيز على عمل مقصود ومدبر نتيجة تدريب جندي شاب على يدي خبير علمه ما عليه عمله. لا إهتمام بالفتاة وإستعدادها لإمتحان قد يفتح أمامها مجالاً لتحقيق أحلامها، ولا إهتمام بالأم والأب وكيف سيمضون عمرهم يتحسرون على ابنتهم التي ذهبت ضحية جندي محتل قام بما دُرب عليه. ولا تفكير بجيرانها وزملائها في الدراسة، والعائلات التي أصبحت تخاف على أبنائها من عمل مماثل. لا أعتقد أن كلمة دناءة تكفي. إنها عجرفة تقيم في أحشاء هؤلاء الناس وتحرق أي شعور بالزمالة الإجتماعية بينهم وبين أي إنسان آخر على هذه الأرض خاصة الإليوسيين.

إرتجف صوت إسماعيل في نهاية قصته، وكأن وضوح العمل كشف له عدم الجدوى من حياته وقد شاهد وسجل إنعدام إنسانية الإحتلال. إذا لم يعرف العالم الخارجي بأذاهم، وأسوأ من ذلك لو عرف ولم يهتم فما الغاية إذن من عمله؟ إذا عرف العالم فقط ما يكشفه المحتل. إذن لا وجود للإليوسيين. إنهم ما يقوله عنهم المحتل، قوم يعيشون في واقع خلق لهم وإن كان لا يحمل أي شبه لحياتهم اليومية.

شعر المستمعون بإحباط إسماعيل وصمتوا بإنظار عودته للكلام. ولكن هوميليا أدركت أنها لا تستطيع البقاء. ستفادر الحافلة إلى دسبيريا بعد نصف ساعة، وبيأس أشارت لإسماعيل إلى ساعتها، فهم وطلب فترة إستراحة ليودع أخته. ترك الجيران الغرفة متيحين للعائلة وقتاً يقضونه وحدهم. ركع إسماعيل أمام والده ووقفت هوميليا وأمها وراءه. رفع إبراهيم يده على رأس إسماعيل مباركاً. فهو كبير العائلة وألقى الحمل على ابنه الذي قام به. أنشدت هوميليا

إحدى ترانيمها ملأوا روعي حتى فاضت: لم اطلب شيئاً. اعداوا لروحي الكرامة التي منحوني إياها. وتعانقت العائلة في وداعها الأخير.

سار إسماعيل مع أخته إلى البوابة وهو يلّمح لها أنها تعتني برئيس وزراء نيفاريا. رسالة أسمى مما يستطيع عمله الذين ابتلوا بوجودهم الفادر والشيطناني، فهي تعمل ما يتوجب على كل إنسان عمله، العناية بالآخر حتى لو كان عدواً.

هوميليا، لقد تركت جويًا وأنا تملأني المرارة والإصرار أن أنزل عقوبة الموت والدمار على النفارين. أن أقتل حجاجاً في الجنوب لأنتقم من الذين ضربوا أبي. كان الإنتقام والكره يملآن قلبي. ولكني التقيت وعملت مع الذين جندوا الشباب الصغار ليصبحوا شهداء إليوسيا، وشاهدت الفراغ في قلوب أولئك الأولاد مهما كان دفيناً في داخلهم، ماتوا قبل أن يعيشوا. لم يستغرقني وقت طويل قبل أن أدرك أن الإنتقام لا يشفي شيئاً: إنه تربة خصبة للمزيد من الموت الأجوف. لهذا تحولت للشهادة لجماعات حقوق الإنسان. إنه لا يخلصني من اليأس ولكنه يمنحني الطريق الوحيد لأفتح عيني لما وراء إليوسيا ليعرف الناس الحقيقة. ربما مع الزمن يرجع الأمل. لقد اخترت أنت عملاً لما وراء ما أقوم به: تشعيرين مع إنسان لديك كل الحق أن تكريهه. لكنك تحسبن ما كان عليه أن يحسه قبل سنوات: إنه ليس وحيداً في العالم لو أنه يفتح قلبه لشخص آخر. لقد أعطيته فرصة ليعرف ذلك، لو عاش، ولم يعطه أحد هذه الفرصة عندما كان يسير في شوارع نيفاريا. حافظني على حالك، وابقى كما أنت.

تعانقا . وركضت هوميليا لحافلتها، لتعود لمريضها .

اليوم السابع: الثواب والعقاب

تتحرك غيوم منخفضة متوعدة من الغرب على دسبيريا مع بداية يوم الثواب والعقاب، مع رنين أجراس عميقة تجلجل مهددة تعكس يوماً كثيباً كالسما المظلمة. الشوارع خالية ما عدا الأعلام السوداء المرصعة بحلقات من اللهب، ترتفع فوق أعمدة الكهرباء، وتلوح في رياح الشتاء. طيلة سبعة أيام كان الجو الكثيب يغطي المدينة ملقياً حجاباً قاتماً جانزياً على طقوس الموسم المقدس. حتى يوم الغفران كان غارقاً في ضباب خفيف بلل الحجاج المحتفلين وهم يرقصون في الشوارع بثيابهم البيضاء، ويفنون أغانيهم القديمة حول الإذعان والتكريم للإله القاضي الذي غفر لهم ذنوبهم. والآن في اليوم الأخير حين يُسلط إله ثورثانا القدير حكمه الأقصى على شعبه، وعندما تظهر قوة الثواب والعقاب، وترهف في قبة سماء الليل كقدر مسلط، يهرب الحجاج من المدينة لئلا يظهروا كخاطئين يواجهون غضب الله الدائم.

على طول شارع بيوكريسز ترهف الأعلام في الهواء البارد، مصدرة أصواتاً حادة ينسجم إيقاعها مع قرع الأجراس المتواصل. ماعدا ذلك يسيطر الصمت، لا أناشيد حزينة، ولا قرع الصدور، ولا بكاء يشوش اليوم السابع. الشارع خال والنوافذ الزجاجية في الأبنية المرتفعة ذات الطابقيين، تعكس جواً كثيباً يغلغ الشارع، بينما قرع الأجراس المتكرر يرسل صدهاء عبر الوادي الضيق الفائر باتجاه قاعة التجمع الإلهية. تفتح الأبواب الضخمة على البهو الفارغ، حيث أزيلت الأعلام البيضاء التي زينت الجدران، وبدلاً منها تدلت أعلام سوداء ضخمة من النوافذ نقشت عليها دوائر العقاب الملتهبة. ألوف الشموع

تشع ذوابها من المصاييح المستديرة التي تصطف على الممرات المتاخمة للنوافذ، وعلى المسرح صفت شموع ضخمة للأموات، تحية لله القدير الذي سيلقي حكم العقاب على الذين قتلوا أقرباءهم بلا ندم، وعلى الفادرين الذين يستعملون موهبتهم في التفكير ليقرمزوا مشيئة الخالق، وعلى المحتال والمنافق والفشاش، والذين يزرعون الخلاف، والذين في سبيل ربحهم الشخصي يفسون أصدقاءهم وعائلتهم ووطنهم.

ولكن القاعة الخالية تقول كل شيء، إستخفاف فارغ بالعيد الذي يمجدون. لا يعترف الحجاج بذنب أو خطيئة إقترفوها ضد إلههم. عزلتهم الغامضة تحيطهم بالبراءة طالما هم الشعب المختار. إيمان قديم يعزز شمول مصلحتهم القائمة على التقاليد والطقوس: لغة واقعية لبروزهم وتميزهم مطبوعة في أذهانهم منذ بداية الزمن. لا يستطيع أحد دخول هذا النطاق الخاص الذي يميزهم ويحجز الآخرين خارج الحماية والحظوة عند إلههم. فقط مواليد الصالحين ينالون الإستحسان، ويؤذن لهم بالدخول إلى قاعة الرضى ويمنحون البركة التي تنفي الذنوب بفضل ميلادهم، ويُلقى الآخرون إلى درجات متدنية من الإنحطاط. هذه الميزة تولد عدم الحساسية وغلاظة القلب واللامبالاة، والتي بدورها تبني حاجزاً يمنع الحجاج من التعامل مع الآخرين ويسبب الخوف والكره والانتقام. قبل مئة وسبعين عاماً أدرك رجل فاضل هذا الوعي لديهم عندما سمع أحد الحجاج يتكلم، فقال: لقد تخيلت أن لهجته شابها شيء من المرارة كشخص محروم من التعاطف الطبيعي مع الآخرين، وملمون بقضاء لم يقع على غيرهم، ونتيجة لذلك لم يعد إنساناً. ولكن مع هذا بدا لي أنه لم يعتبرها لعنة، بل تقبلها أخيراً كأفضل ما يمكن أن يحدث له.

من أجل هذه الخطوة كان المريض يحيط نفسه بالمؤمنين الذين وجدوا فيه لمحة من النبي الذي تكلم بإسم الله وأرشدهم إلى أرضهم بالميثاق، والتي حفظت مدى التاريخ بدماء أجدادهم التي سفكت في المعارك قبل قرون عصير جلي أعتقهم من قوانين الطبيعة أو المجتمع فيما لو سفكت دماء بريئة للحصول على ما منحهم إياه إلههم. عامل هذا الوعي برفق بإظهار حماسه الديني بلبس الرموز المقدسة كالوسام الذهبي وقد طبع عليه ختم ثورثانا، الـ زرزقاء علامة الرضوخ لقوة الله المطلقة.

الآن إذ تشرق الشمس وراء الغيوم السوداء في اليوم السابع للموسم المقدس، ويفطى الظلام الأرض، تتحرك الحياة في المريض في عالمه المظلم، غير واع للزمن الذي بالنسبة له غير قائم، فقط الغياب اللانهائي للنور، والذكريات العنيدة التي تلازم لحظات وعيه، وتتركه محبطاً ذليلاً وكثيراً. يسبح عقله في عالم مطوق يدور باستمرار وكأنه على دوامة شاردة، يحاول بلا نجاح أن يمسك بحلقة المعنى الذهبية التي تتخلص من قبضته.

لا يتجلى شيء من تجاربه الآن. كانت قيادته دائماً منتجة، ودائماً أطاقه الآخرون، وحققوا رغباته، ولم يشك أحد بتفكيره أبداً. ولكنه يستلقي الآن بلا حراك، غير معترف به، شخص منسي ومهمل، كتلة من اللحم المتعفن، يحارب عقله الصحو إذ يغزو كيانه، كطاعون من الذكريات التي تدفعه لمكافحة أمور إنتهت منذ سنوات بعيدة ونُسيت، تبتعث الآن لتعذبه كقروح متهيجة تحكّه، عذاب لانهاهي لا سيطرة لعقله المدقق عليه بل يخضع لنزوة وتساؤل لا يسبر غوره..

يسمع الباب يفتح بهدوء وينصت لخطوات تتحرك بإتجاه سريره. ينتظر بشوق صوت هوميليا إذ يعرف أنها هي التي تدخل بهذه

النوم. ولكنها تبقى صامته وهي تقترب من مريضها وتلاحظ ملامحه المتجمدة وشكله المتيبس. تفحص المرقاب قبل أن تنزع معطفها ووشاحها، ثم تعلقهم في الخزانة القريبة. تعود لسريره، تسوي الملاة تحت ذقنه، وتبدأ مراسيم حمامه. تدندن بإحدى ترانيمها وهي تحضر ثيابه الدافئة من السخانة وشراشف السرير النظيفة. يتجاوب بعفوية وبعاطفة وكأنها تسمعه يتحدث إليها.

صوتك الناعم يا ملاكي يوقظ هذا الفراغ وكأن الشمس أشرقت من وراء التلال، فيخترق النور أشد ثايا الكهف ظلاماً. أنا أحيا الآن لأسمع صوتك الحلو... فلا شيء غيره يعطيني الأمل في هذه الحفرة الخاوية... فقط أنت، يا ممرضتي المجهولة، ممرضتي الإليوسية. آه يا ملاكي، أية سخرية هذه، أنك أنت وحدك صديقة معذب شعبك. ليت هناك زمن يمكن أن نلتقي به لأخبرك كم تعنين لي في هذه الحياة بعد الموت والتي لا يشاركني فيها أحد.

أعتقد عندما تذهبين، أن وحشاً أعظم مني خطط لي هذا العذاب القاسي الذي يفرقني في ذنوبي حيث أغوص في وحل مستنقع من صنعي... ولسبب لا أفهمه، علي أن أواجه ماعملت وكأنني أواجه قديسي الذي يمسك بالكتاب المقدس حيث يعتقد أن فيه أجوبة أجبر على رؤيتها. ولكن عقلي ينفجر من طاعتي لتعاليم الآخرين، وأرفض ما أجبر على مواجهته. ما الذي تقدمينه فيجعلني أتجاوب بلطف مع من يجب أن أكرهها؟ أعرف فقط أنك تدركين أنني لا أتحرك وإنما أقتفس، وأني ميت للجميع ولكن حي لك. كلميني هوميليا، كلميني.

وكانها تجيب رجاء مريضها المعذب، تبدأ هوميليا بالحديث إلى الشكل الجامد الذي تجره إلى جانب المفصلة. تعرف أنني عدت من جويلا ليلة أمس: غابت طول النهار. لربما لم تلاحظ. أنا أسفة

لإضطراري إلى الذهاب فأنا لا أحب أن يعتني بك القرباء. فهم دائماً وقحون، ولكنني سأعوض لك اليوم. ستأتي كاريتا بعد قليل. وسنحممك بالماء الدافئ والصابون المعطر، وسيتحسن شعورك. أوه، ها هي كاريتا. ارتفع صوت هوميليا عندما رأت كاريتا التي لاحظت أنها كانت تكلم المريض.

آنتحدثين إليه ثانية؟ لو أتى أحد ما سيظنون أنك مجنونة. بينما تتكلم كاريتا لا يغيب إهتمامها عن هوميليا.

هل تدركين كم يكون الوضع حزينا لو كان يسمع طيلة هذه الأشهر دون أن يتمكن من إخبارنا. هل فكرت بذلك. أن تكوني حية ولكن مدفونة في جسدك. لا أنكر أنه قد يسمعني، وأنه بحاجة إلى صوت أحد يعطيه الراحة أو يشعره أنه ليس وحيداً. تذكرني ترنيمتنا لننظر إلى بعض كمصدر إنقاذنا، إذلا يوجد سوى ذلك لقد تعلمناه يا كاريتا، حتى لو بدوننا سخفاء أمام الآخرين. لو كان سيئاً كما يقولون فهو بحاجة أشد لعنايتنا. أريده أن يشعر أنني هنا وأنه ليس وحيداً.

ألا زلت تقولين هذا بعد زيارتك لأخيك وأبيك أمس؟ لا أصدق أنهم يشاركونك مشاعرك، فكلاهما يعيشان في الشقاء الذي سببه لهم هذا المريض ورجاله. أريد أن أسمع ماذا قال إسماعيل: فهو وسط أسوأ الأوضاع. بثت الأخبار أمس أن عائلة قتلت بصاروخ على الشاطئ، الأطفال وأمههم وعمهم. إنهم يحققون بالحادث وهذا يعني أنهم لن يجدوا مسؤولاً عنه. هذا ما يحصل دائماً ولا نستطيع عمل شيء تجاهه، حتى المتعصبين ومن ذهب الحزن بعقلهم فينتحرون لن يوقفوا هذه المذابح. كيف نحارب مصفحات وطائرات وسفن وجرافات وصواريخ؟ إنه كلعبة إصابة الهدف في الملاهي ولكن نحن الهدف. إنهم يطلقون علينا الرصاص عندما نرميهم بالحجارة. تبدو المرارة

بصوت وهي تسرد حوادث الإحتلال معبرة عن عمق ألمها وإستكارها .

كفى كاريتا. لا أريد أن نتحدث عن هذه الأمور الآن. علينا أن نحممه. لقد وعدته أننا سنكون لطفاء. لدي الكثير مما أريد قوله لك ولكن علينا أن ننتظر. أرجوك. يفلت كلماتها الحزن الذي تسرب من خلال بكائها اليأس. تشعر الفتاتان باليأس الذي يطبق عليهما داخل جدران المدينة القديمة. والآن بعد زيارة هوميليا لجويا. ينعكس صدى تلك الكتابة في البلدة الجبلية التي كانت ملجأ من سلطة الإحتلال.

كاريتا على حق يا ملاكي، إنها صادقة. أنا الفادر الذي يجب أن تخافيه. تعلمت باكراً ألا أحب أحداً، حتى الله... خصوصاً الله... فقط أن أحب نفسي. الحب يهدم القوة، ويسلب القاسي من سلاحه الأقوى. اللامبالاة. لقد أنكرت الحب على الجميع، العائلة، الجيران، وحتى نيفاريا. تلك اللامبالاة هي ترسي الذي لا يحتاج إلاً للأكاذيب والفسخ والتعالي ليبقى لامعاً، ولا لوم عليها. ولكن أنت يا هوميليا، يا ملاكي الحارس، لا تعرفين شيئاً من هذا، ولا تستطيعين تأمله. براءتك في بساطتك. ترانيمك تعد ما لا يستطيع البشر الحصول عليه. إنها الأمنيات التي يصورها الأقوياء لتعزية المحرومين.

لعل براءتك هي التي تجعلني أتجاوب بعمق معك، لعل ذلك لأنني أدرك أن لا أحد يعرف أي أفكار تلعب هذا الرجل الميت الحي ويجبرني على مواجهة اللامبالاة التي تعكس سواد روحي. لا أعرف لماذا تهتمين بي، ولم تغنين لي بعدوبة، ولم تخاطبيني. ولم تظهرين هذا اللطف للرجل الذي شلّ والدك.

هل ينمو لطفك في الجهل والبراءة؟ ألم يرغمك الخوف على بناء أسوار من الكره حول أعدائك؟ كم يختلف عالمك عني حيث أعيش

حبيس سجن بنيته. الآن، عندما كان يجب أن أموت، أستلقي في سواد أفكاري التي تجعل كل ما عداها غير مرئي ولا حقيقي؟ فقط أحكامي التي صدرت ونفذت قائمة. لا حقيقة سواها الآن. لا وجود إلا لقراراتي التي لم يُعترض عليها: قرارات نفت منات الألوف من بيوتهم، قرارات مكنت أعمالاً شائنة أن تنفذ شهواتي: قرارات، قرارات تتلوى في الرياح وعقابي الأزلي هو وزن هويتي كوحش أو قديس. أي عقاب هذا أن أتمرغ في ماضيّ البربري... بلا حب، معزول، مبعد عن الجنس البشري- ملعون لأرى من خلال عينيك، عيني ضحيتي! أقصى السخرية اللامعقولة لمصير أنكر وجوده. أن أتجول في ظلام فكر لا يتجاوب مع الآخر، يدمر الشيء الوحيد الذي يعطي معنى لوجودي، فكرة نفايا التي عاشت في داخلي، تضيع الآن في ظلام الصمت حيث لا ينمو شيء، الصحراء المحسوسة لعبث الإنسانية. عشت حياتي أخلق الخوف، وبلاتبصر أخذ على عاتقي حقاً لا أمنحه لإنسان فوقني: الآن أوجد في عالم غير واقعي بين الحياة والموت، الخوف المجسد. هكذا القبر بعد الحياة. أتخافيني هوميليا، لو عرفت من أنا؟

أثناء عذاب المريض بحزنه الداخلي، تحممه الفتاتان بعناية، تفسلانه بالماء الدافئ برفق، وتجففان جسده المبتل برقة، وترشانه بالبودرة المنعشة، وتغيران فراشه بملاءات نظيفة عطرة. ثم تغيران رداءه وتثبتان المشمع حوله. لا تتكلمان. بكاء هوميليا خفق أي كلام عن جويًا.



ولكن دون أن تعلم هوميليا أو كاريتا يستغرق المريض في نوم عميق حيث يجد نفسه محاطاً بجموع من المتلقين يقفون على درجات مبنى البرلمان، ويمتدون على مرمى البصر في شارع بيوكريسز، يلوحون بأعلام نغاريا، ويفنون النشيد الوطني بينما الفرق الموسيقية تعزف والبالونات تتطاير فوق الجموع في السماء الزرقاء لهذه الأمسية الخريفية المجيدة. يقف تحت الإفريز الذي يعرض صور الأنبياء وهم يلفتون وجوههم باتجاه الوسط حيث شعار نيفاريا البارز، ويلبس الزي الأبيض الرسمي مزيناً بأوشحة حمراء وخضراء، وكتافات، وأدواراً من الأشرطة الملونة ومجموعة نجوم تتوج الحافة الزرقاء لقبته المروسة . ويصطف المرافقون على الجانبين يحمل كل منهم علماً رمزاً لأيام الموسم المقدس السبعة. يرفع يديه فوق رأسه مشيراً إلى السماء ويتسم للجمهور، متقبلاً ولاهم له كرئيس دولة نيفاريا .

وعندما تصدح الموسيقى في هذا اليوم السابع بلحن النصر الكبير، ينزل الدرجات خارجاً من أسوار المدينة القديمة دسبيريا إلى أراضي اليوسيا المفتصة، وينشق الجمهور كالموج فاتحاً له طريقاً ملوناً في شارع بيوكريسز، وعلى الجانبين علقت صور ضخمة له كجندي شاب، وكجنرال وكمتمعد في قاعة التجمع، وكمشرح لوظائف عليا، كوزير الدفاع، كسياسي، وأخيراً كرئيس الوزراء. تشع الصور في الزجاج الأزرق في البناءات العالية التي على جانبي الشارع بدل صور إعلانات الفتيات الجميلات وبيوت الإجازة على شاطئ البحر، ومنتوجات التجميل التي تعرض عليها عادة. يتحرك الجمهور معاً من خلال المدينة القديمة باتجاه البوابة الشرقية كنهر متدفق فاتحاً الطريق أمام الجنرال المنتصر وحاشيته. ينحنون بتواضع عندما يمر، متممين بصلوات قديمة من نبوءات ثورتانا. يتقبل ولاهم بيده المرتفعة لمباركتهم، ويبدو فعلاً كنبيل ملكي لولاية نيفاريا الفخمة.

عندما يصل إلى البوابة في أقصى شرق المدينة القديمة المسورة، يتمهل الجمهور بإحترام فاسحاً فاسحاً الطريق لمروءه. يفتح الجنود البوابة الخشبية الثقيلة التي تتفرج تحت المتاريس كفم ضخم : يمر منها والجماهير تتبعه ببطء كأفعى ممتدة تزحف عبر الأبواب المفتوحة، وهو يعبر أزقة إليوسيا الضيقة، ذات الطريق التي سلكتها هوميليا عندما ذهبت إلى جويبا. تلتف دربه الآن شمالاً بموازات الحائط الجديد الذي أقامه ليحاصر الإليوسيين. هذا الحاجز يرتفع بشكل مفاجئ من الدرب بعلو 25 قدماً، ويسد كل شيء إلى الغرب بما فيه الأجزاء القديمة من إليوسيا والتي تحولت إلى نيفاريا، بيوتاً كانت للإليوسيين منذ قرون وقد خسروها إلى الأبد للمختلسين النيفاريين.

يتحول يميناُ باتجاه الشرق صاعداً التلال المرتفعة المزدهمة بالعمارات البيضاء المتهالكة القذرة، وقد تراكمت متلاصقة وأوت ألوف الإليوسيين الذين حشروا في هذه المساحة الضيقة. عندما يصل قمة المرتفع، وقبل أن يتحول إلى الغرب، يلتفت ليرى الحجاج يعرجون في الشوارع، أشكال صغيرة سوداء يسرعون هنا وهناك ويختفون في الأزقة والشوارع الجانبية، يتدفقون الآن على الجبل من خلال الشقوق كحشرات تغزو كومة كبيرة من النفايات. يلاحظ الغيوم السوداء تتجمع بعيداً في الغرب فوق مدينة دسبيريا، ويشعر بالهواء البارد يلسع وجهه ويدمع عينيه.

تتحول مسيرة نصره في الشوارع إلى جنازة، ويرتفع نواح حزين بدل أنغام مسيرة النصر المشرقة، وتغطي أعلام أرجوانية غامقة وسوداء توابيت يجرها النائحون، بدل الأعلام البيضاء المشرقة والزرقاء المذهبة التي تلوتحت في نسمات الصباح، وتتسلل غيوم داكنة مشؤومة خلال الشوارع والأزقة داخل البلدة القديمة وخارج أسوارها،

بدل السماء الزرقاء الدافئة التي توهجت في شمس المساء عندما وقف تحت شعار الدولة في شارع بيوكريسز.

لم يهيئه شيء لهذه الرؤية المخيفة، ولا يمكنه عمل شيء وهو ممدد في قبره الأسود ليوقف هذا التغيير المتعذر إجتماعه في عقله الحالم. يعتريه خوف أسوأ من تدفق الأدرينالين في المعارك، خوف يدمغ الروح بعلامة ثابتة للخيانة، يشعر بها في قلبه كحقيقة حياته، لا تنسى أبداً ولا تففر، بل تظل أيقونة الخيانة والخديعة والإستهزاء.

ولكن الكابوس يستمر. فبينما يتسلق تلال شرق إليوسيا، تتدفق من البيوت على الجانبين هياكل عظمية تلوح بأعلام الإليوسيين الخضراء: ينضمون إلى الموكب الجنائزي الذي يجر التوابيت. قطار من التوابيت يتحرك صاعداً التل من البوابة، وكل نعش يحمله أشخاص مقنسين، ثلاثة من كل ناحية، وكلهم يرتلون لحناً جنائزياً حزيناً يخيم منذراً فوق المسيرة كالغيوم السوداء التي تغطي الآن دسبيريا. حجاب أسود يهبط على كل الأراضي من أسوار المدينة القديمة وفوق كل تل ووادي في إليوسيا. يصبح حلمه حقيقة وجوده: لقد أصبح جسده الفاقد الوعي تجسيدا لإليوسيا، الأرض القاحلة، العاجزة، والمهملة، التي حولها إلى أرض بور تعج بقوم يحتاجون المواساة والراحة والفرح والأمل، ولكنهم يعيشون في عذاب وسجن وظلم وعجز، قوم ضائعون على مسرح العالم، ضحايا الإهمال والشر والعنصرية والخوف.

ولكن عندما يصل قمة التل الذي يشرف شمالاً بإتجاه جويا، يلتفت ثانية ليرى المنظر العجيب الممتد تحته، منظراً مقزراً حيث يعج الحجاج كالديدان يزحفون على الهياكل العظمية والبيوت الخاوية والشوارع والممرات التي تترنح صاعدة التل بإتجاه المريض، وقد مزقت

الرياح أعلام الأيام المقدسة التي يحملونها عالياً وهي غافلة عن رمزها المقدس.

ينظر من خلال الضباب الكثيف الذي يلف التلال، يسمع عويل ونواح الأشخاص المقلنين الذين يحملون توابيت موتى الإليوسيين، يحملق غير مصدق وهو يرى الجدار الذي أقامه يلوح فوقه وكأنه اقتلع من أساسه وتقدم بإتجاهه باستمرار. يلتفت خائفاً من هذا المنظر المرعب وينظر بإتجاه جویا. وهناك، على بعد، إلى الشرق، تبرز الشمس من خلال الغيوم السوداء، شظية في البداية ولكنها تكبر، وبينما يراقب منظر الأرض وهي تبدو ببطء للعيان، يمتد الحائط الرمادي إلى اليمين والشمال على مدى البصر متجمعاً تحت وهج الشمس عند الأفق، وفجأة يراه يتحرك، وهو واقف متجمد على القمة حيث يمكنه رؤية المدينة القديمة دسبيريا، وبراري إليوسيا القاحلة. ولكن إذ يتحرك الحائط بإتجاهه يحجب الشمس ملقياً الظلال على الأرض، وفارشاً حجاباً مظلماً على عقله و كأن نور عالمه انطفأ، محطماً أحلامه لبعث نيفاريا، وطموحه لمجد خالد كإمبراطور.

يحيطه رعب المنظر من كل الجهات. تتحرك الجدران كالأشربة مفلقة عليه، ومتضخمة حجماً وهي تكتسح التلال وتحدرد إلى الوديان كاسحة الأشجار والبيوت، والحجارة والرمال أمام ضخامتها، تقترب وتكبر وتعلو أهوالاً إسمنتية تحول النهار إلى ليل وتدفن في جوفها كل ما يقابلها. يقف متجمداً أمام هذه القوة العنيدة، خائفاً نهايته القصوى: عاجزاً، يلتفت إلى دسبيريا ويلمحها وهي تفوص في الرمال بهدير صاخب من الرياح والبَرْد. يحملق غير مصدق وهو يرى الحجاج ينزلقون إلى الورا عبر الشوارع والممرات، أذرعهم تلوح وسيقانهم تنزلق تحتهم في الهوة التي خلفها الجدار وحيث تنزلق

دسبيريا، باعثة من الأسفل غيوماً من الغبار، ويُسمع نواح المؤمنين وهم يرتمون في الهاوية التي تتادي الحجاج إلى مصيرهم المحتوم.

وفي رعب تام يلتفت فجأة إلى الشرق ليواجه السور وهو يحيطه، كتله الرمادية ترتفع فوقه وهو يبحث عن ضوء المساء. ولكن كل شيء أصبح مظلماً. فيخفض عينيه ليواجه صورته معكوسة على الحائط أمامه، مرآة تعكس المنظر المخيف وراءه والوجه البشع الذي يحملق فيه. وهناك في المرآة الضخمة يرى تاج نيفاريا فوق شعره الرمادي المنفوش على أذنيه، تاج الحكمة القديم الذي لبسه طيلة القرون الماضية كل ملوك وأنبياء الحضارات الماضية، مستكيناً على جمجمته، عيناه غائرتان عميقاً في العظم، سوداوان، مشؤومتان، عمياء عن الحقيقة التي تلاحظها مرغمة. وأرهب ما في الأمر. فمه يعج بالديدان، ثقب منفرج بسخرية شنيعة، وكأنه يضحك على نفسه، لا، يسخر من نفسه - قمة الإنحراف والسخف والعقم الوحشي. في تلك اللحظة يدرك أنه يشهد في قبر نفسه الفاسدة، نهاية كل أعماله، خلاصة نهاية مجد رحلته المخيفة مدى الحياة، حين فجأة يتحطم الجدار المرتفع فوقه لألوف القطع التي تنخر جدران قبره، ويتساقط على نعشه ويسود الصمت.

يتفجر عقله برعب مخيف، الرؤية مطبوعة لا تمحى عن ضميره. قد لا يكون للزمن وجود في عزلته المتجمدة ولكنه للمرء الأولى يشعر بالمستقبل، قد يكون غير واضح، ولكنه مطبوع بالتهديد القائم لنبوءة ثورثانا بأقصى عقاب.

هوميليا، يا ملاكي، أينك؟ لقد عذبني حلم مريع، رؤية جهنمية حرقت روحي إلى الأعماق... حياتي الآن، تقلصت لتأملات لا تنتهي، تحولني لمصدر فسق وفساد إنساني. عقود كرسيتها بأيامها للهدم

والتدمير والموت، نهاية وجودي... لا أتذكر يوماً لم أسبب فيه الموت أو العذاب أو الخراب لحياة إليوسي. أتجول الآن في هذه الهوة الجهنمية عبر حقول من أموات الإليوسيين، أسير عليهم، عيونهم تحمق بي غير مصدقة. كما أنها تشفق علي. أعبر حقولاً من الضياع حيث يتحرك الهواء حولي كأنفاس شخص لطيفة، أنفاس حياة لم تحي. كابوس يريني أياماً لا تعد مليئة بالتفكير بدون إنقطاع... وجوه مشوهة تحمق بي، أطفال، أطفال على مدى الرؤية منغطون بظل الجدار الضخم الرمادي. أن لا أرى الشمس ولا أعرف لذة الجري على تلال إليوسيا... أن أجبر على الحياة في هذا الإجتراح لوحشيتي ساعة بعد ساعة، وأن أواجه عقاب الله فأرى وأشعر بالآمي وتعذبي للأخرين، هذه جهنم فوق الطافة... أن أعيش بالذكري ولا أموت، أن أعيش المعتقدات الماكرة، السامة، التي ابتليت بها أطفالنا والتي ستكون ميراثهم للأبد، قبر ذهني وعاطفي يعيشون فيه كل حياتهم. ولا قدر الله ان لا أكلم أحداً، لأعترف لأولئك المخدوعين والمدمرين. وأن أشهد على تفهمي في صمت هذا القبو الفظيع حيث أرقد، أنا وحدي المحكم الوحيد لأعمالي - بلراحة، بلا رحمة، بلا غفران، بلا نهاية. أه، يا إلهي، هوميليا، ماذا فعلت؟

وإذ يندب مريضها حزنه لهجرانه، وعذابه الفظيع اللانهائي، والصور المتكررة لوحشيته تجاه الإليوسيين تتدفق من أعماقه حيث يستقر اليأس، فينادي هوميليا لتكلمه وتغني له وتلمسه، وتسامحه ليتمكن من الراحة والخلص من العقاب الفظيع الذي القي عليه.

ولكن مع أن هوميليا تعجز عن رؤية عذابه، فهي تشعر بصيحة الألم التي تمزق ذهنه ولا يمكنها الإنطلاق من حلقه، النواح الأبدي لكل المعذبين، دون مواساة من أخواتهم وإخوانهم، ضائعون، منسيون،

متروكون في الرمال المتناثرة في نواح الريح. التي تفرق نحيب المريض
المعذب في الهاوية حيث تفرق نيفاريا، لتصبح آخر الإمبراطوريات
التي تعيش وتموت في هذه الممالك الوسطى حيث شهوات الإنسان
وطمعه يلاقي نهايته المحتومة.



النهاية

للمؤلف ويليام أ. كوك مؤلفات:

- زمن للمعرفة
- مزامير للقرن الواحد والعشرين
- ملاحقة الخداع: سياسة بوش الشرق أوسطية
- قناع عدم المنطق
- آلام كولن باول
- الأمل المحطم: العدالة المحرومة: إغتصاب فلسطين

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET